ستيفان زفايج

يوم في حياة امرأة

رواية

تقديم وتحرير

محمد فايز حسن

الكتاب: يوم في حياة امرأة (رواية)

الكاتب: ستيفان زفايج

تقديم وتحرير: مُحَمَّد فايز حسن

الطبعة: ٢٠٢٢

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة - جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

زفايج ، ستيفان

يوم في حياة امرأة (رواية)/ ستيفان زفايج, تقديم وتحرير: مُحَمَّد فايز حسن – الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٣٣ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٢ – ٥٠١ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٩٩١٩ / ٢٠٢٢

يوم في حياة امرأة
(رواية)

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

ارتبطت حياة الروائيّ النمساوي ستيفان زفايج (١٨٨١– ١٩٤٢) بالكثير من الأحداث العاصفة والمواقف الحادة والحسّاسة مما كان يحدث في العالم من حروب طاحنة، لاسيّما الحرب العالميّة الثانية التي عبّر عن يأسه من العنف الذي شهدته الإنسانيّة خلالها بالانتحار.

وقد أقدم على إنهاء حياته هو وزوجته في البرازيل التي هاجر إليها بعد العديد من الهجرات والأسفار وحصوله على الجنسيّة البريطانيّة، في الوقت الذي كان فيه أحد أهمّ الأدباء المشهورين في الأدب العالميّ.

وكان قد أوضّح في رسائل إلى أصدقائه موقفه مما كان يحدث في العالم من عنف لا يمكن أن يحتمل، ولا أن يعالج مع هذا الكمّ المهيمن على الإنسانيّة من الحقد والخراب، فأنهى حياته بتناول كميّات كبيرة من الأدويّة المنوّمة برفقة زوجته. هذا الموت الذي أعطى تجربته وحضوره الفنيّ والأدبيّ صورة خاصّة يعبّر عن طريقته في التفكير والتحليل، ذلك أنّ ما ذكره في رسائله لأصدقائه عن تفسيره لحالته النفسيّة وموقفه اليائس من أحداث هذا العالم وهو يقدم على الانتحار

يُظهر انهماكه الشديد ببحثه عن الطبيعة النفسيّة الموجّهة للأفعال الإنسانيّة، والدوافع التي تكمن خلف خيارات الأفراد في الأفعال والأقوال.

وكانت آخر رواية نشرها قبل انتحاره هي رواية " يوم في حياة امرأة" وقد سبق وأن ترجمت للعربية تحت أسماء أخرى . .

الرواية والحب:

لا يهتم الفن الروائي بتقديم تفسير للحب، بل يقدمه كما هو، فيتركز هدف الروائي على درجة العمق والاتساع والتأثير والسبب والنتيجة وإلى أين سيؤدي، وإظهار التأثير الذي تحدثه علاقة الحب التي جمعت بين أبطال الرواية وكيف انتهت كل علاقة أو بمعنى أصح إلى أين اتجهت هذه العلاقة، ومن أبرع الكُتّاب في هذا الشأن الكاتب النمساوي الشهير ستيفان زفايج.

ودائما ما تقع المرأة في رواياته في الخطيئة، فهل يعني ذلك إدانةً ما لها؟ بالطبع لا، وعن ذلك يقول زفايج: "كثيرًا ما تقع المرأة في حياتها ضحية لعوامل مبهمة، أقوى من إرادتها وخصالها، فلا يمكن الحكم على هذه المرأة بالفجور.. ثم أوضحتُ أن اللجوء إلى الأساليب الملتوية، وطمس الحقائق، إنما نغرر به أنفسنا، حتى لا نستشعر بشاعة غرائزنا".

وفي إحدى رواياته قال عن واحدة من أولئك النسوة:"ماذا في أن تمرّ بالمرء لحظة من لحظات الطيش.. مرةً واحدة في هذا العمر المديد؟! ولكن أين المفر من ذلك الرقيب الغامض.. الضمير؟".

وقد تربع زفايج على عرش الرواية العالمية طوال الفترة ما بين عامي ١٩١١ و١٩٣٣م، وهي الفترة التي بدأت بصدور واحدة من أهم رواياته وأكثرها تأثيراً، وأعني بها روايته "قلوب تحترق" التي وزعت في حينها قرابة المائة وخمسين ألف نسخة، وهو رقم كان يعد في ذلك الحين شديد الضخامة، خاصة إذا علمنا أن تلك الآلاف من النسخ تخص الطبعة الألمانية فقط، وقد ترجمت وطبعت بعد ذلك بأكثر من لغة ، ويرجع ذلك إلى أن ستيفان زفايج يصور في رواياته أدق تفاصيل النزاعات الإنسانية في مُجمل نتاجه الأدبي الذي تنوع بين القصة القصيرة والرواية وكتابة سير الشخصيات الشهيرة في الحياة الاجتماعية، وكذلك تقديم قراءات لروائع الروايات العالمية بالتحليل، وتناول أهم الأسماء الأدبية والفكرية.

وكان زفايج يرسم ملامح أعماق النفس البشرية، ويكشف عن أدق خفاياها وأعنف انفعالاتها كالحب والكراهية والخوف والشغف، مما دفع البعض لمقارنة رواياته بدراسات فرويد في علم النفس.

هذه الرواية :

رواية "يوم في حياة امرأة" على الرغم من قصرها، فهي واحدة من

أهم أعمال ستيفان زفايج التي تكشف عن موهبته الكبيرة في التعبير عن النفس البشرية بكل تعقيد تركيبتها وتناقضاتها، لذلك اعتبرها فرويد تحفة فنية، بينما قال عنها مكسيم جوركي، أنه لم يقرأ في حياته رواية بمثل قوتها، ومديحه لها أسهم كثيراً في انتشارها عالمياً، وفي انتشار اسم كاتبها.

تجري أحداث القصة في الريف الإنجليزي حيث قرر عجوزان قضاء ما تبقى لهما من العمر، ولم تدم عزلتهما طويلًا، فبعد فترة ينتقل للعيش بجوارهما زوجان شابان، حتى هذه اللحظة لا يجد القارئ شيئًا يدله على ما يوحي به العنوان، إلى أن يقرر الجيران والزوجة مساعدة الزوج الشاب بجلب حيوان أليف يرعاه ويهتم به. فدخول الكلب الصغير يغير من سير أحداث القصة، فقد أصبح محور اهتمام الزوج، وركز ستيفان زفايج عند وصفه للكلب على الجانب العاطفي والتغيير الذي انتابه بمجرد أنه عندما عجز عن فهم السبب، أحس أن خطراً يهدد وجوده ومكانته في البيت، فأصبحت المشاعر هي التي تتحكم في ردة فعله. مشاعر تنسب عادةً للإنسان، لكن زفايج تمكن من نسبها لحيوان حيث جعلنا نتعاطف معه أحيانا ونكرهه عندما نقترب من إيجاد إجابة لعنوان القصة، فمشاعر الغضب والدهشة المغلفة بالغيرة المؤدية في الأخير إلى التخطيط والانتقام عبر ارتكاب جريمة ذهبت ضحيتها تلك الطفلة التي سقطت في النهر بشكل غامض.

وقد حاول ستيفان زفايج عبر روايته معالجة عدة مواضيع تهم الإنسان عموما، والمرأة خصوصا، ذلك أن هذا الكاتب النمساوي يختار مواضيع بسيطة ذات حمولة رمزية لمعالجة قضايا كبرى، قضايا تخص الإنسان ومصيره المحفوف بالغموض، وعبر روايته هذه يناقش مسألة أن يقامر المرء بحياته من أجل شيء ما، هذه المقامرة غالبا ما تنتهي بالخيبة والمرارة.

الرواية عبارة عن سر احتفظت به أرملة لأكثر من عشرين سنة، قبل أن تكشفه لشاب وثقت فيه، ومدة هذا السر هي أربع وعشرون ساعة، هذه المرأة ظلت وفية لزوجها حتى بعد أن مات، لكنها تورطت في لقاء حميمي مع شاب دون أن تدري كيف حدث ذلك، أنقذته من الانتحار بداية، بعد أن فقد كل ماله في كازينو للعب، من هناك خرج دون أن تكون له وجهة محددة، واندفعت نحوه لكي تنقذه، ثم رافقته إلى فندق بسيط، من أجل إيوائه، لكنها دون أن تدري دخلت معه.

لقد وهبته الحياة ثم صارت متيمة به، وقررت أن تتجه إلى الكازينو الذي رأته فيه، وصدمت لما رأته يعود إلى عادته، بعد أن خان وعده، ويخسر هذه المرأة التي كانت مستعدة أن تهبه كل شيء، خسرها بعد أن أهانها هناك، لا لشيء إلا لأنها لم تتركه يلعب، لقد أهانها بشكل مثير للشفقة، وها هي تبتعد عنه إلى الأبد، بعد أن قامرت وغامرت بحياتها من أجله.

لقد ندمت على كل شيء، وتمنت لو تركته يموت، لكنه سيموت بعد ذلك، سينتحر، وستكتشف ذلك بالصدفة، هذا الخبر سيريحها، لأنها لم تكن تريد لقاءه مجددا ولو من باب الصدفة، كما أن هذا السر الذي كشفته سيريحها أكثر بعد أن احتفظت به لنفسها، لكنها أفصحت عنه بعد عشرين عاما.

ويحاول زفايج في روايته تسليط الضوء على طبيعة المرأة عبر روايته، معتبرا أن المرأة يمكن أن تكون في أي لحظة من لحظات حياتها فريسة لقوى غريبة أقوى من إرادتها ومن ذكائها، وتمت مناقشة هذا الموضوع بعد القضية التي أثارتها زوجة أحدهم بعد اختفائها، ومرد هذا الاختفاء أنها رافقت أحدهم الذي قد حضر لتوه إلى هذا الفندق، وكتب زفايج يقول: "أعتقد أن امرأة تتبع غريزتها بحرية وشغف أشرف، من تلك التي تختار –كما جرت العادة– أن تخون زوجها عبر إغماض عينيها وهي بين أحضانه".

كما ناقش زفايج عبر الرواية موضوع القمار، حيث وصف بالتدقيق طاولات الكازينو، وما يحيط بها من لاعبين، وركز على أياديهم التي تكون أهميتها بما كان خلال أطوار اللعب، وملامح اللاعبين التي تتبدل بناء على ما يحصل على الطاولة، وكتب يقول: "مئات من الطباع كانت تتكشف هكذا بلمح البصر، في الحركة التي يقوم بها الواحد من أجل أخذ المال". وأضاف عبر لسان العجوز:

"القمار يكشف المرء، إنه كلمة سوقية، ويد الإنسان أثناء اللعب هي مرآته التي تظهره بوضوح أكبر. لأن كل مدمني ألعاب الحظ أو جلهم قد تعلموا خلال وقت قصير كيف يتحكمون في تعابير وجوههم.

إنهم يغيبون انفعالاتهم بين أسنانهم المصطكة، ويسرقون من أعينهم انعكاس اضطرابهم، ويمنحون وجوههم مظهرا أملس لا تصلب فيه، كاشفين بذلك عن لامبالاة مصطنعة ومتقنعين بقناع الرشاقة". لكن القمار ليس سوى رمز في الرواية، فأن يقامر المرء بحياته من أجل شيء، فذلك لن يجني منه إلا المرارة والخيبة، وهو ما حدث للسيدة الإنجليزية لما قامرت بحياتها من أجل ذلك الغريب، فلم تجني غير الألم.

وزفايج يشرح دفعه لأن تكشف المرأة سرها بقوله: "أن يهرم المرء ليس في الحقيقة سوى أن يتوقف عن الخوف من ماضيه". ولما رأت بأن هذا الغريب يساند بشغف فكرة أن أربع وعشرون ساعة قادرة على تغيير حياة امرأة كليا، شعرت أنها معنية بذلك، ولذلك قالت "لعل العبء الثقيل والهوس الأبدي بالماضي، يزولان بتحرير روحي عبر الاعتراف".

مُحَمَّد فايز حسن

الفصل الأول

تابعت وأنا جالس إلى المائدة في ذلك الفندق الصغير في "الريفييرا" النقاش الحاد، كنا في أحد أيام الشتاء قبل الحرب بعشر سنوات، وكنت قد اعتدت أن أقضي الشتاء في تلك البقعة التي تأسر النفوس بسحرها وجمالها فتجذب الناس إليها.

ودون أن ندري، كاد النقاش أن يصير عراكاً لما تخلله من ألفاظ السباب، ويرجع ذلك لما تميز به القوم من إدراك ضيق، جعلهم ينظرون إلى الأمور من الناحية السطحية، حتى لتدفعهم توافه الأحداث إلى حدة في الانفعال ليس لها ما يبررها.

وعلى هذا الغرار كانت الجماعة التي تجلس إلى مائدتنا، وجل أفرادها من أبناء الطبقة العادية، فكانت أحاديثهم مقتضبة خالية من الصخب تتخللها دعابات تافهة، فإذا ما انتهى الطعام تفرق كل لشأنه وهوايته. فيذهب الرجل الألماني وزوجته إلى النزهة لإشباع هوايتهما في التصوير، ويعمد الدانمركي إلى صيد السمك الذي كان يقتضي جهوداً كبيرة، أما السيدة الإنجليزية فكانت تفضل قراءة الكتب على سواها من أسباب التسلية، بينما كان الشاب الإيطالي وعروسه الفاتنة يترددان بين الحين والحين على مونت كارلو حيث

يجدان متعتهما، أما أنا فكنت أقبع في مكان منعزل هادئ وأنصرف إلى التأليف، ولكن الجدل في ذلك اليوم أنسانا أنفسنا، فلم نبرح أماكننا، وكان البعض ينهض من مكانه لا عن رغبة في الانصراف بل بتأثير انفعال أو غضب.

وكانت جماعتنا مكونة من سبعة أفراد، في ذلك الفندق الصغير الذي بدا وكأنه مبنى قائم بذاته يطل على منظر ساحر على الشاطئ، بيد أنه كان في الواقع مبنى متواضعاً ملحقاً بفندق فخم كبير اسمه فندق "بالاس"، تقوم بينهما حديقة، كان من السهل علينا أن نتصل عبرها بنزلاء الفندق الكبير، وكان الموضوع الذي أثار جماعتنا غريباً، إذ كانت قد حدثت ضجة شديدة في الفندق. فقد وصل شاب فرنسي قبيل منتصف الساعة الواحدة بدقائق، واختار لنفسه حجرة تطل على البحر مما يوحي بأنه من أهل الثراء، وجذب الشاب إليه الأنظار، ليس لأناقته فقط، بل لوسامته المفرطة ودماثته، فقد كان ذا وجه دقيق التقاطيع أقرب إلى وجه الحسناء منه إلى وجه الرجل كما كان فمه ينم عن عواطف مضطرمة وينساب فوقه شارب ناعم في لون الذهب، أما شعره فكان ناعماً أيضًا يتخلله تموج محبب يزيد من بهائه، يعز على المرء أن يصف لونه بدقة فهو مزيج من اللون البني والأحمر الداكن، تشع الدقة والحنان من عينيه، فهو بذلك نموذج للجمال الطبيعي، يذكرنا بتماثيل الجمال في متاحف الشمع، ويمكن القول باختصار إن التدقيق في تأمل ملامح الشاب عن كثب يؤكد للمرء أنه

نموذج رائع نادر للدماثة الطبيعية في غير تكلف.

وأخذ الشاب يحيي كل واحد ببساطة وحفاوة، وكان لبقاً في أداء التحية مقرونة بالمجاملة الرقيقة، فلايفوته أن يبادر إلى السيدة التي تبحث عن معطفها فيعاونها في أدب وعن طيب خاطر، ويبتسم لكل طفل ويداعبه. فكان لطيفاً في غير تكلف يشيع البهجة في النفوس، فيضفي عليه ذلك سحراً وبهاءً! فخلق وجوده جواً من الحيوية بين النزلاء وبخاصة المسنين منهم، فاستطاع في غير عناء أن يسلبهم لبهم بفيض شبابه الذي كان ينفذ إلى القلوب، وبما كان يضفيه من مرح وبهجة وحيوية. فلم تكد تمر بضع ساعات على حضوره حتى كان قد أنس إليه الجميع، واستأثرت به ابنتا الرجل المكتنز الثري صاحب أحد المصانع الكبيرة في ليون، فأخذتا تلعبان معه "التنس"، وكان عمر إحداهما حوالي ثلاثة عشر عاماً، وعمر الأخرى حوالي أربعة عشر عاماً، واسمها آنيت وبلانش.

وكانت والدتهما مدام هنرييت لطيفة بالغة الاحتشام والوقار، فراحت تراقب فتاتيها وهما تسمران مع الشاب وتمزحان معه في سذاجة وبراءة، فتعلو شفتي الأم ابتسامة الغبطة والرضا، ولما جاء المساء اندمج الفتى في زمرتنا، وكلنا نلعب الشطرنج، وراح يروي لنا في هدوء وأدب بعض الأقاصيص الممتعة، وإذ فرغ من ذلك، ذهب إلى الشرفة وراح يتجاذب أطراف الحديث مع والدة الفتاتين، بينما كان

زوجها منهمكاً في لعب "الدومنيو" مع رجل من رجال الأعمال، ومضى بنا الوقت دون أن نشعر، حتى إذا كان الليل ينتصف، وجدت الشاب في مكتب سكرتيرة الفندق وقد استغرقهما حديث هادئ خاص وكأن حديثهما سر من الأسرار!

وانطوى الليل وانبلج الصبح، فإذا الفتى يشارك الدانمركي صيد السمك، وقد أظهر مهارة فائقة في تلك الهواية دُهش لها رفيقه، وعاد فاندمج في حديث مع والد الفتاتين –صاحب المصنع– وكان حديثهما في النواحي السياسية ويبدو أن الشاب كان محدثاً لبقاً، حتى لقد سمعنا الرجل العجوز يضحك في قهقهة عالية بين الحين والحين.

وجلس الشاب بعض الوقت مع مدام هنرييت في الحديقة يحتسيان القهوة، ولعب بعد ذلك "التنس" مع ابنتيها مرة أخرى، حتى إذا انتهى راح يتحدث مع الزوجين الألمانيين في البهو، وحينماوافت الساعة السادسة، خرجتُ قاصداً محطة السكة الحديد لألقي خطابًا في مكتب البريد، فالتقيت بالشاب ورأيته يقبل نحوي في خطوات حثيثة، وقال لي بسرعة إن ظروفاً قاهرة لم تكن في الحسبان تضطره للسفر، ولذلك فإنه يودعني، ثم ذكر أنه سيعود بعد يومين.

وعندما حان موعد العشاء لم نره بيننا حول المائدة، ولكننا أحسسنا أن روحه ماثلة بيننا وإن كان غائباً عنا بجسمه، فقد كان هو مدار الحديث، لا على مائدتنا فقط بل على جميع الموائد، والكل

يمتدحونه ويطرون دماثة أخلاقه وخفة روحه، وتفرق معظم الجماعة إلى مخادعهم في تلك الليلة يلتمسون النوم. فذهبت إلى حجرتي، وتناولت كتاباً كنت قد قطعت في قراءته شوطاً كبيراً، فأردت أن أفرغ منه، وكانت الساعة قبيل منتصف الليل، حين طرقت سمعي بغتة، خلال النافذة التي كانت مفتوحة، ضوضاء في الحديقة وأصوات تتصايح.

وحدست أن أمراً غير عادي يجري، فألم بي شعور بالقلق، وأسرعت الخطى وأنا أجتاز الممر الذي يصل بين الفندق والملحق، يحدوني التوجس أكثر مما يحدوني الفضول، وإذا بي أجد الجميع – النزلاء وموظفي الفندق وعماله– في صخب وقلق، وكان والد الفتاتين قد أنهمك في لعب "الدومينو" مع صاحبه كعادتهما كل ليلة، بينما لم تكن والدتهما قد عادت من نزهتها التي كانت تواظب على القيام بها كل مساء على شاطئ البحر، وقد توجس الجميع من أن يكون قد أصابها شر، فاندفع زوجها المكتنز في رزانة وخفة، وراح يذرع الشاطئ عدواً كحيوان مطارد مذعور، وبدا صوته رهيباً وهو يصيح ويناديها في انفعال: "هنرييت".. "هنرييت".. فكان صوته أشبه بحشرجة حيوان صريع، وراح عمال الفندق وموظفوه يذرعون الفندق ذهاباً وإياباً، صعوداً وهبوطاً ليوقظوا النزلاء النائمين، واتصل مدير الفندق بمركز الشرطة تليفونياً. كان ذلك يجري في الفندق، بينما كان الزوج يهيم على الشاطئ وهو يتخبط وكأن مساً أصابه، فقد انتابته نوبة صراخ هستيرية: "هنرييت"... "هنرييت" فكان صراخه أشبه بالعويل.

واستيقظت الفتاتان، ووقفتا بملابس النوم وأخذتا تناديان أمهما، وإذا سمعهما والدهما، هرع يرتقي الدرج إليهما ليهدئ من روعهما.

حدث بعد ذلك ما لم يتوقعه أحد، ولا يوجد ما هو أبشع ولا أبعث على الألم منه، فسرعان ما رأينا الرجل يهبط الدرج، وقد بدا عليه الإعياء والشراسة، وارتسمت على أساريره مسحة جامدة وقد نشر ورقة بين يديه، وراح ينهي إلى رئيس الخدم ويهيب به وبرجاله أن يكفوا عن البحث الذي لا طائل من ورائه قائلًا:

– لقد هربت زوجتي.

ورغم تلك الطعنة المسمومة التي أصابته، فقد أبدى الرجل كثيراً من الشجاعة الخارقة وضبط النفس وجلداً فوق الطاقة والاحتمال، أمام من التفوا حوله وراحوا يمطرونه بأسئلتهم ويرشقونه بنظراتهم. ثم تفرقوا من حوله وقد ران عليهم الخجل والمفزع في آن واحد، فشق الرجل طريقه أمامنا وهو يترنح دون أن يتطلع إلى أحد، ويمم شطر غرفة المطالعة، فدلف إليها وأطفأ الأنوار، ثم سمعنا الضجة التي أحدثها جسمه البدين الهائل وهو يلقي به على أحد المقاعد متهالكًا، وانخرط في نحيب وحشي، شأن من طلق البكاء منذ نعومة أظفاره!

وأثر في نفوسنا ذلك الألم القاتل، حتى في أقلنا إرهافاً وحساسية، فذُهلنا جميعاً، فلم تتحرك شفة ببسمة أو كلمة تتصل بالمأساة. وتفرقنا في صمت، وقد غشيتنا سحابة من الكآبة، كأنما شعرنا بالخجل لصدمة

الرجل ونكبته، فراح كل منا يتلمس الطريق إلى غرفته، الواحد إثر الآخر.

وظل المسكين – وقد تحول إلى حطام– يبكي ويصل شهيقه إلى آذاننا، وقد لفته العزلة في ظلام الحجرة التي لاذ بها، وكأنه وحيد في ذلك الفندق، الذي عج لفترة بالهمسات وكأنها طنين خلية نحل، بيد أنها ما لبثت أن أخذت تتضاءل شيئًا فشيئًا حتى تلاشت في ظلام الليل، فساد السكون إلا من نحيب المسكين.

الفصل الثاني

على الرغم من استعادة الهدوء واختتام المناقشة الحادة بلطف، إلا أن الرجل الألماني كان في فورة غضب عاصف أفقدته وعيه، فألقى بالورقة التي كانت بين يديه على الأرض بعد فركها في عصبية، وحدث أن دخلت إحدى الخادمات حجرة المطالعة، ورأتها ملقاة على الأرض فالتقطتها ثم قرأتها، وجرى لسانها بما حوته الورقة. فلم يعد سرًّا أن مدام هنرييت رحلت برفقة الشاب الفرنسي. وما إن تجلت هذه الحقيقة، حتى أخذت نظرة الإعجاب بذلك الشاب تتقلص، وإن لم يبدُ غريبًا أن سيدة فتية حسناء كهذه تضن بجمالها على رجل مسن مكتنز بشع المنظر كزوجها، لترتمي بين أحضان شاب وسيم المحيا منطلق الأسارير.

بيد أن اللغز الذي استغلق على الجميع وأثار حنقهم، أن أحداً من أفراد تلك الأسرة المنكودة –الزوج أو الابنتان أو الزوجة– لم يكن قد رأى ذلك الشاب الفرنسي من قبل. وأن من العسير أن يقبل العقل أن حديثاً لساعة أو بعض ساعة –ذات مساء في شرفة الفندق– وحديثاً آخر أثناء تناول القهوة في الحديقة، يكفيان لاستمالة امرأة تناهز الثلاثين من العمر وتعتبر ذات مركز مرموق في عرف المجتمع، وإغرائها على أن تستهين بالمثل العليا، فتهرب من زوجها بهذه

الطريقة المزرية، وتضحي بابنتيها، فتندفع في نزوة الشباب وتضع مستقبلها بين يدي شاب غريب!

وانتهت جماعة مائدتنا إلى ترجيح الرأي القائل بأن الزوجة لابد أنها كانت على علاقة أثيمة بذلك الشاب من قبل، وهي بذلك قد اقترفت خيانة شنيعة. فظروف المأساة واضحة كل الوضوح لا غموض فيها، وأن حضور الشاب كان بمثابة الخيط الأخير في تدبير هرب الزوجة معه. فهل يعقل أن تتحول زوجة عن طريق حياتها الزوجية، ويؤثر فيها أول لقاء مع رجل إلى حد يدفعها إلى الهروب معه؟!

اتفقت الجماعة على هذا الرأي، أما أنا فقد رأيت غير ذلك، وأبديت رأيي في شجاعة وحزم. وذكرت أن الزوجة التي تُصدم بخيبة في آمالها وتعتقد أنها لم تحظ بمثلها العليا أو أن حياتها الزوجية يعتريها الضيق والتبرم، لا نستبعد عليها أن تستسلم لأول تجربة عاطفية أو عرض براق! وقد حدث ما توقعته، فقد تعرض رأيي لنقاش أخذ يحتدم حتى صار صخباً، فقد استهجن فريق وجهة نظري، وأبى أن يعترف بالحب الذي ينبثق بغتة، الحب من أول نظرة، وسفهني هذا الفريق معلناً أن شيئًا كهذا هراء وحماقة وليس واقعيًّا، بل إنه لا يعدو أن يكون من مبتكرات الخيال.

ولا أنكر أن جدالاً يحدث بين جماعة يضمهم مكان عام، لا يكون راسخاً في حججه، وأن ما يصدر من تلك الحجج غث لأنه يُلقى في

عجلة وارتجال، ولا أدري كيف احتدم النقاش بشكل خاطف. ولعل ذلك يرجع إلى الإحساس المرهف ورد الفعل الذي نجم عن الحادث، كما يرجع أيضاً إلى أن الفريق الذي عارضني يتكون من النزيلين الألماني والإيطالي وزوجتيهما. فقد حرص الزوجان أن يبثا في النفوس أن زوجتيهما لا يمكن أن تقدما على عمل قذر ينطوي على الحماقة كالذي اقترفته مدام هنرييت. ولم يستطيعا أن يدللا على رأيهما إلا بضيق أفقي وقلة خبرتي بالنساء، وأنني أجهل أنهن أنواع. وقد أثارني ذلك وبخاصة عندما ذكرت الزوجة الألمانية أن هناك نساء فضليات ونساء فاجرات، وأن هنرييت لابد وأن تكون من النوع الثاني، فلم أطق منها ذلك ودفعتها بأن قلت:

– كثيراً ما تقع المرأة في حياتها ضحية لعوامل مبهمة أقوى من إرادتها وخصالها، فلا يمكن الحكم على هذه المرأة بالفجور. ثم أوضحت أن اللجوء إلى الأساليب الملتوية وطمس الحقائق، إنما نغرر به أنفسنا حتى لا نستشعر بشاعة غرائزنا، وفي اعتقادي أن كثيراً من النساء اللواتي يعتبرن أنفسهن أمنع من الوقوع في الزلل، وأنهن على خلق وطهارة، أولئك أقرب إلى الانزلاق في الزلل، وأنا أرى أن تسير المرأة في حياتها على سجيتها وتخضع لغريزتها، فإن ذلك أحرى بها من أن تعيش في الظلام فتخون زوجها وهي في عصمته فتحيا حياة مزدوجة شأن الكثيرات من النساء!

وما إن ألقيت بقنبلتي، تكهرب الجو واشتدت حدة النقاش. فكنت أدافع عن مدام هنرييت الضحية كلما اشتد هجوم المعارضين عليها، بيد أنني شعرت أنني اندفعت أكثر من اللازم تحت تأثير استثارتي، وبدا لجبهة المعارضة المكونة من الألماني وزوجته، والإيطالي وزوجته، أن اندفاعي يحمل معنى الإهانة ويهدف إلى الاستفزاز. وكانوا أربعة وأنا واحد، فغالوا في مهاجمتي بعنف، وتحول الجدل إلى نقاش، والنقاش إلى صخب هائج حد بالدانمركي العجوز أن ينظر إلينا باشًّا وينقر على المائدة بأصابعه لكي ينبهنا، قائلاً في اقتضاب:

– رفقًا أيها السادة!

فحملتنا إشارته على الهدوء لحظة قصيرة، نهض بعدها أحد الزوجين في اندفاع وغضب كأنما يهم بالإقدام على سخافة، مما جعل زوجته تبذل عناءً كبيراً كي تهدئ من ثائرته. ووصل بنا الأمر إلى أن كدنا نشتبك في عراك، لولا أن الله قيض لنا مسز س التي هالها الموقف فأخذت تشيع جوًّا من الهدوء والسلام، وأمكنها أن تهدئ حدة توتر أعصابنا.

ومسز س امرأة إنجليزية وقور، تقدمت بها السن، ذات شعر أبيض وكأنه خيوط من الفضة، وأمكنها لهذه الأسباب أن تحظى بمركز الصدارة في مائدتنا. فعندما نلتف حول المائدة تأخذ مكانها في جلسة متزنة وتشمل كل منا برعايتها دون محاباة أو تفضيل. وكانت ترسل

حديثها في اقتصاد لأنها كانت تفضل الإصغاء على الكلام، ومما يستحق الذكر أن مظهرها يجمع بين المهابة والبشاشة في صورة تشرح النفس، ورزانتها تحمل جليسها على تقديرها. ولها قدرة فائقة على تكييف الجو الذي تكون فيه فتمنح الود لمن يستحقه، وتزامل من ترى أنه جدير بزمالتها. بيد أنها في أغلب الأحيان كانت تخلو إلى نفسها في الحديقة وتنصرف إلى القراءة أو تعزف على "البيانو" إذا راق لها ذلك. ونادراً ما كانت تتحدث إلى غيرها، وإذا تحدثت فبمقدار وميزان، فقد كانت بطبيعتها تحب العزلة والهدوء. فلا عجب أن يكون لها تأثير سحري في النفوس، وليس أدل على ذلك من أننا –حين تدخلت في المسألة التي كنا بصددها– عرفنا أننا جانبنا الصواب وانتهجنا أسلوبًا في الجدل لا يليق.

وفي اللحظة التي شملنا فيها الهدوء، وران علينا الوجوم، حين وجهت إلينا القول بالترفق في مناقشاتنا، وأمكن لزوجة الألماني أن تهدئ من فورة غضبه وتحمله على الجلوس بعد أن نهض وافقًا، رفعت مسز س عينيها الصافيتين –على غير انتظار– ورمقتني بنظرة طويلة مترددة، ثم تكلمت في الموضوع موضحة وجهة نظرها في لباقة وبراعة تدل على تعميق في التفكير، ووجهت إليَّ الكلام قائلة:

– إذا لم أخطئ فهم ما أدليت به، فمن الجائز أن تكون مدام هنرييت قد ترددت في هذه المغامرة تحت وحي الساعة ودون اتفاق

سابق. وفي رأيي أن ذلك محتمل الوقوع لأية أنثى، فتجد نفسها مسوقة إلى أمور، قد تبدو لها قبل ذلك وكأنه لا يمكن الإقدام عليها أو حتى مجرد التفكير فيها، وفي هذه الحالة، من الظلم أن يحكم عليها بسوء التصرف!

وأعجبني منطقها في الحديث وتقديرها للأمور الذي دل على تعمق ودراية، فقلت لها على الفور:

– هذا هو رأيي يا سيدتي.

فعادت تقول في تؤدة ورزانة شأن من يصدر قوانين راسخة:

– ولكن هذا يقلب مقاييس الأخلاق، بل يجعلها حبراً على ورق، لأنه يعني الاستهانة بالأوضاع الخلقية والقوانين الاجتماعية. فإذا كنت ترى أن الاندفاع في إثم خلقي تحت تأثير العاطفة لا يجوز أن يُعتبر جريمة، فلماذا نُظم المجتمع ووُضعت القوانين وقام القضاء؟ وإذا كان الأمر كذلك من وجهة نظرك، فإنك ولا شك لن تعدم دافعاً عاطفياً وراء كل جريمة!

وراقت لي بسمتها الغامضة التي تخللت كلامها، وأعجبتني نبراتها الواضحة في اعتداد، فقلت محاولاً أن أجاريها في لهجتها:

– مما لا شك فيه أن القائمين على العدالة يكون رأيهم أكثر حدة من رأيي، لأن من صلب أعمالهم صيانة الأخلاق والمحافظة على

الأوضاع الاجتماعية وتقاليدها، ولذلك يلومون أكثر مما يعذرون. إنني أقف موقف الدفاع لا الاتهام، وأحلل تصرفات الناس نفسياً دون أن أحكم عليهم.

ورشقتني بنظرة عميقة ثاقبة، ثم بدا عليها التردد. فجال بخاطري أنها ربما لم تدرك مغزى كلامي، فهممت أن أكرر بلغتها ما قلت، ولكنني عدلت عن ذلك، إذ وجدتها تستأنف كلامها في صلابة وصرامة كأنها أستاذ وكأنني تلميذ:

– ألا يتسم هذا التصرف بالخزي والعار؟ أليس شائناً وخزياً أن تهجر زوجة رجلها وابنتيها لتفر مع شخص دخل حياتها عرضاً دون أن تقدر مصيرها، أو تستوثق من أنه يستحق منها هذه التضحية؟ هل يسيغ المنطق التماس العذر لتصرف شائن طائش كهذا، وبخاصة من سيدة جاوزت سن الشباب الأرعنكان خليقاً بها أن تقدر إنسانيتها وتحترم نفسها ووضعها الاجتماعي، إن لم يكن ذلك من أجل زوجها فمن أجل ابنتيها ومستقبلهما؟

ولم يقنعني كلامها، وتمسكت بوجهة نظري في تشبث فقلت لها:

– لقد ذكرت، وها أنذا أكرر، أنني أتكلم في الموضوع بصفة عامة دون اتخاذ رأي معين، أو دون أن أحكم على السيدة إزاء تصرفها. بيد أنه لا يسعني إلا أن أقرر أنني بالغت بعض الشيء في تجسيم الحادث. إنني لا أميل إلى تمجيد تصرف مدام هنرييت، بل على العكس أعتبره

تصرفاً منطوياً على الخسة، وفي الوقت نفسه لا يمكنني أن أقول إنها عاشقة ولهانة، فهي فيما يبدو لي عادية ضعيفة الجناح. وإن كنت أقدر لها إقدامها على تنفيذ رغبتها في جرأة عجيبة ودون أن تهيب مما سيؤول إليه مصيرها، ولذلك فإني أستشعر العطف والرثاء لها ليقيني من مبلغ ما ينتظرها من تعاسة في الحياة إن عاجلاً أو آجلاً. ولعلها جعلت الرعونة رائدها، فقد تعجلت في إقدامها واندفاعها، ورغم كل ذلك لا أرى أن ما أقدمت عليه ينطوي على دناءة، وأنكر أن يحتقر الناس امرأة تعيسة!

وإذ رأت مني هذا الإصرار والتشبث قالت:

– هل أفهم من ذلك أنك ما زلت مصرًّا على احترامها وتقديرها؟ ألم تتغير نظرتك إليها، حينما كانت بيننا بالأمس زوجة فاضلة، ثم بعد ذلك تضرب بجميع معايير الأخلاق والنظم الاجتماعية عرض الحائط فتهرب مع رجل غريب عنها مخلفة وراءها زوجها وابنتيها؟

– لا فارق في رأيي بين الاثنتين!

وكأنما لدغتها عقرب، فقد رأيتها تهتف دون وعي حيث استبد بها الموضوع:

– أتعقل ما تقول؟ أحقًّا هذا رأيك؟!

وأخذت تفكر لحظة، ثم نظرت إليَّ بعينيها الصافيتين، وقالت:

– وإذا فرضنا أنك التقيت بمدام هنرييت، وكانت بين أحضان عشيقها، فهل تحييها مثلما كنت تحييها من قبل؟

– طبعًا!

– وتتحدث إليها؟

– بلا شك!

– وإذا كانت لك زوجة، هل تسمح لها بمعرفة هذه السيدة وكأنها امرأة شريفة فاضلة؟

– أسمح بذلك بلا شك!

وكأن قنبلة انفجرت بجانبها عندما سمعت جوابي الأخير، فقد استبدت بها الدهشة وأخذها العجب وكأنها لا تصدق ما سمعت، فقالت:

– هل تعي ما تقول؟ أتفعل ذلك حقًّا؟

– أفعله دون تردد!

وران عليها الصمت لحظة واستغرقت في تفكير عميق،ثم تفرست في وجهي كأنها تستشف ما استغلق عليها في دخيلتي، وفجأة قالت في جرأة:

– ترى ماذا كنت أفعل أنا؟ لعلي كنت أفعل ما فعلته!

قالت ذلك، ثم نهضت واقفة وصافحتني وهي أشد ما تكون هدوءاً واطمئناناً، شأن بني جنسها من الإنجليز حينما يختمون أي نقاش في وداعة ودون جفاء، وعادت السكينة إلينا بفضل أسلوبها في مناقشة الموضوع، وشعرنا في قرارة أنفسنا بمبلغ ما لهذه السيدة الوقور من تأثير أشاع بيننا الوئام بعد أن كدنا نتشاجر. وأخذ التوتر يتضاءل شيئاً فشيئاً حتى تلاشى تماماً دون أن يترك في نفوسنا أثراً لجفوة أو حفيظة، ولا يعلم سوى الله ما كانت ستصل إليه الحال لولا تدخل هذه السيدة الوقور في النقاش وتمحيص الرأي في ذلك الموضوع في عمق ورزانة.

الفصل الثالث

روح المودة التي خصتني بها مسز س بعد المناقشة الحادةالتي دارت بيننا أسهمت في التخفيف من الفتور الذي أبداه الذين خالفوني في الرأي. فقد أخذت مسز س تنتهز أي فرصة لتبادلني الحديث في الحديقة، على غير عادتها التي عرفناها فيها من ميل إلى العزلة والهدوء والصمت والتحفظ، إذ إنها –كما سبق أن ذكرت– نادراً ما كانت تتبسط في الحديث، بل كانت لا تتحدث إلا لمامًا، أما وقد خرجت عن هذه القاعدة معي، فقد اعتبرت تحينها الفرص للتحدث إليَّ، ثم التبسط معي في الحديث، رفعاً من شأني في نظرها وجميلاً تؤثرني به على سواي، ولا أغالي إذا قلت إنها كانت تسعى إليَّ وتبحث عني، وقد لحظت ذلك جليًّا، حتى لقد ذهبت بي الظنون من ناحيتها لولا ذلك التاج من خيوط الشعر الفضي الذي يعلو رأسها.

وقد لاحظت أن جميع أحاديثنا كانت تتصل –دون وعي منا– بمدام هنرييت. وبدا لي أن مسز س كانت تميل إلى اتهام تلك المرأة المنكودة –التي استهانت بالمثل العليا والواجبات– بالرعونة والطيش والافتقار إلى الخلق، وفي الوقت نفسه تصارحني باغتباطها لما أستشعره من عطف صادق بالغ لهذه المرأة، وبسرورها من أن مؤثراً ما لم يمكنه

أن يحملني على أن أحيد عن ذلك العطف. وكانت أحاديثها تدور حول هذه النقطة بالذات، حتى جعلتني في حيرة من إصرارها هذا الذي كاد يبلغ حد الإلحاح.

وظل لغز اهتمامها بهذا الموضوع مستغلقًا عليَّ بضعة أيام، دون أن أوفق إلى تفسيره، وحدث أن ذكرت لها في إحدى نزهاتنا أن رحيلي أضحى وشيكاً، وأنني أفكر في السفر بعد يومين، وعندئذ تجلى لي اهتمامها واضحاً، فقد اكفهر وجهها الهادئ، وغامت سحابة أسى على عينيها الصافيتين وقالت:

– وا أسفاه.. لديَّ الكثير أود أن أفضي به إليك.

ولفتها حيرة شديدة، كأنما انصرف فكرها إلى موضوع آخر، ثم أضجرها شرود ذهنها، وصمتت فجأة، ومدت إليَّ يدها في حركة سريعة وقالت:

– ليس باستطاعتي التعبير عما أود الإفضاء به إليك، لذلك أرى من الأفضل أن أبعثه إليك كتابة.

وتركتني وحثت الخطى نحو الفندق في سرعة لم أعهدها فيها من قبل!

ولم أدهش حين ذهبت إلى حجرتي قبيل العشاء، فوجدت خطاباً كُتب في سرعة ولكن بوضوح، لا أذكر نصه بالضبط، تضمن سؤالي عما إذا كان لا يضايقني أن تروي لي حدثاً وقع لها في حياتها. وذكرت أن هذا

الحدث قديم حتى أنها تشعر بأنها اقتطعته من واقع حياتها، وبما أنني مزمع على الرحيل، فإن ذلك يجعل الحديث ميسوراً في أمر ظل يقلق بالها، ويجعلها تستشعر العذاب في قرارة نفسها لأعوام نيفت على العشرين. فإذا كان لا يضيرني أن أصغي إليها، فعليَّ أن ألقاها في ساعة حددتها..

وأخذتني الدهشة لما حواه الخطاب، فقد كان أسلوبه معبراً ودقيقاً لا يصدر إلا عن سيدة محنكة مثلها. واستعصى عليَّ الرد في سهولة حتى أنني مزقت بضعة ردود سطرتها لأنها لم ترق لي، وأخيراً كتبت بأسلوب ارتضيته فقلت: "إنني أعتز بتلك الثقة التي تؤثريني بها، وسأكون عند حسن ظنك فيما طلبت، ولك مطلق الحرية في أن تفضي إليَّ بما ترين وأن تخفي عني ما تشائين، بشرط التزام الحقيقة نحوك ونحوي في الرواية، وأكرر لك أنني أعتبر ثقتك تقديراً يشرفني".

وبعثت رسالتي إليها في نفس الليلة، فجاءني في الصبح التالي رد يقول: "إن آراءك صائبة، فالحقيقة المشوهة تافهة، ولا بد من إيراد الحقيقة كاملة، لذلك سأبذل قصارى جهدي لكي لا أبترها، ولكي لا أخفي شيئاً عن نفسي وعنك، احضر بعد العشاء إلى حجرتي، فلن أخشى ألسنة الناس وأنا في هذه السن المتقدمة، والحديقة ليست مكاناً مأموناً للحديث كما أنني أخشى آذان الناس. إن قراري هذا ليس بالأمر الهين على نفسي!"

وتم لقاؤنا على المائدة قبل أن ينصرم النهار، وكان الحديث متقطعاً

في أمور مختلفة، وكأنه ليس بيننا اتفاق ما، ولكن الاضطراب بدا واضحاً على السيدة، حتى تقابلنا بعد ذلك في الحديقة. ولحظت أنها تتحاشاني، فحز ذلك في نفسي، وانتابني شعور بالعجب والإشفاق، وأنا أرقب تلك العجوز تهرب مني كالغزال النافر في أحد ممرات الحديقة تحف به أشجار متقابلة، وكأنها شابة في ميعة الصبا.

وحان الموعد الذي حددته من ذلك المساء، فيممت شطر حجرتها ونقرت على الباب في خفة، ففتحت لي الباب بمجرد أن طرقته وكأنها كانت واقفة خلفه في انتظار مقدمي، وقد خيم الظلام على الغرفة إلا من ضوء باهت ينبعث من مصباح صغير فوق منضدة. واستقبلتني السيدة وهي رابطة الجأش، وكأن زيارتي لها زيارة طبيعية عادية، وليست بتدبير سابق واتفاق للإفضاء إليَّ بمكنون نفسها، وقدمت لي مقعداً، وجلست هي على آخر في مواجهتي، وبدا أنها تلتزم الحيطة في حركاتها وسكناتها. وران علينا صمت فرض نفسه، فلم يقو أحدنا على خرقه، كذلك الذي يسبق أمراً جللاً أو حدثاً خطيراً يوشك أن ينطلق ويعلَن. وطال الصمت ثم طال، ولم أجد في نفسي الجرأة على أن أبدأ الكلام، فقد رأيت نفسي أمام شخصية جبارة ذات إرادة فولاذية تصطرع مع صاحبها ومع مقاومة شديدة، وخفف من توتر أعصابي لذلك الصمت القاتل، ما تناهى إلى سمعي من أنغام موسيقية تنبعث من حجرة الاستقبال، فسبحت فيها بذهني وأذني.

وضاقت السيدة بذلك الصمت المطبق، فشحذت عزيمتها كمن يقبل على هجوم، وانطلق عقال لسانها وأخذت تقول:

– إن أقسى ما في الأمر أنني لا أدري كيف أبدأ الكلام. ومنذ يومين وأنا أروض نفسي على التزام الصدق والصراحة فيما سأرويه، وأتمنى لنفسي التوفيق، ولعلك لا تدرك الدافع الذي يحدوني فيما اعتزمت، وأنت لا تمت إليَّ بصلة. بيد أن ذلك الأمر استغرق كل تفكيري، ويمكنك أن تثق في صدقي حين أقول إن مما هو فوق طاقة الإنسان أن يظل فكره طيلة حياته نهبًا لحادث شغل من تلك الحياة يوماً واحداً. نعم استغرق ما سأفضي لك به يوماً واحداً من عمري الذي قارب السبعين عامًا!

وكم كنت أحدث نفسي في شبه هذيان: "ماذا في أن تمر بالمرء لحظة من لحظات الطيش، مرة واحدة في هذا العمر المديد؟! ولكن أين المفر من ذلك الرقيب الغامض.. الضمير؟!" وحين شاءت المقادير وسمعتك تناقش حادث مدام هنريت من الناحية الواقعية، قفز إلى ذهني أن باستطاعتي أن أضع حداً لأمري الذي يقضني، والذي يدفعني دائماً إلى أن أقف من نفسي لنفسي موقف الاتهام، وجال بخاطري أنني سوف أحظى براحة البال إن أنا أفضيت في صدق وصراحة لشخص ما بحديث ذلك اليوم المفرد من أيام عمري.

وقد كان في الإمكان أن أخفف من وطأة ذنبي ووخز ضميري

بالاعتراف من أمد بعيد لو أنني كنت أعتنق الكاثوليكية، ولكننا بتبعيتنا للكنيسة الإنجليزية محرومون من هذا السبيل، لهذا فقد استقر رأيي على ما أنا مقدمة عليه، فأفضي إليك بسري لأتطهر منه أو على الأقل لأخفف من عبء وزري، ولا يسعني إلا إزجاء الشكر لك لقبولك ما عرضت ولم ترفض أو تتردد، ولذلك سأروي لك قصة ذلك اليوم من أيام عمري، فإن بقية الأيام ليست بذات قيمة بل لعلها تبعث الضجر لمن يلم بها.

سارت حياتي رتيبة عادية لا يتخللها طارئ من الطوارئ حتى وصلت إلى بداية الحلقة الخامسة من عمري. فقد نشأت في أسرة ذات ثراء كبير في اسكتلندا وكانت لنا ضياع مترامية ومصانع عظيمة، فكنا نعيش في بذخ كما يعيش النبلاء، نقضي جل السنة في ضياعنا، ونمنح أنفسنا عطلة في كل عام نقضيها في لندن، ووضعت المقادير في طريقي الرجل الذي قُدر له أن يكون زوجي، فعرفته في أحد المجتمعات وكنت في الثامنة عشرة حينذاك، وكان الابن الثاني في أسرة س وهي من الأسر المرموقة الذائعة الصيت. قضى في خدمة جيش الإمبراطورية عشر سنوات بالهند، ولم نلبث أن تزوجنا وعشنا في بذخ شأن الثراة من أمثالنا. ورتبنا حياتنا في نظام شائق بديع، ثلاثة أشهر نقضيها في لندن نغشى فيها المجتمعات الراقية من أبناء طبقتنا، وثلاثة أخرى نقضيها في مزارعنا نستمتع بسحر الريف وجماله ونضرته، وكنا نقضي بقية السنة في ربوع فرنسا وإيطاليا، وإسبانيا، ترفرف السعادة على حياتنا الزوجية.

وقد منّ الله علينا بولدين اكتملت الآن رجولتهما.

ثم ضن عليَّ القدر وشاء أن ينتزع هنائي، فمات زوجي فجأة – وكنت وقتذاك في الأربعين من عمري– وكان قد مرض بالكبد بسبب السنين التي قضاها في المناطق الحارة، وعانى في أيامه الأخيرة من الآلام ما لا أستطيع وصفه، وكان ابننا الأكبر في ذلك الوقت قد جُند في الجيش، كما كان الابن الثاني في الكلية الحربية. وهكذا وجدت نفسي لا أنيس ولا جليس يخفف من كربي ووحشتي، فكانت الوحدة عذاباً لا يطاق لمن ألفت حياة المجتمعات. فتملكني القنوط، وبدا لي أن بقائي أضحى مستحيلاً في ذلك البيت الخاوي، تقض مضجعي وتستنزف نفسي ذكريات الكارثة التي حلت بي وفجيعتي في زوجي. فخطرت لي فكرة بدا لي أن فيها عزاء وسلوى في أن ألجأ إلى التنقل والأسفار، فاستقر رأيي على ذلك، وشجعني أن أبنائي لم يكونا قد تزوجا.

وبدت لي حياتي بلا هدف أو جدوى، فقد قضى الرجل الذي تقاسمت معه الحياة والهناء والسعادة والأفكار والميول مدى ربع قرن تقريبًا، وكان ولداي قد بلغا من العمر حدًّا يستطيعان معه أن يستقلا عني، بل لقد أحببت لهما ذلك حتى لا يعكر وجودي معهما مرح شبابهما بحزني وأساي، فضلًا عن أنني زهدت متع الحياة، ولم تعد نفسي تهفو إلى شيء منها!

ويعجز لساني الآن أن أصف لك تلك الشهور الأولى التي خيم

عليها الحزن والكآبة والأسى. وأذكر أنني تمنيت أن أموت فأستريح، واستبدت بي تلك الرغبة، بيد أنني لم أجد في نفسي جرأة على مجابهة الموت عمداً، الموت الذي أتمناه لينقذني من لوعتي وأساي!

وذات يوم، وكان قد انقضى على وفاة زوجي عام وبضعة أشهر، وكنت قد بلغت الثانية والأربعين من عمري في ذلك الوقت، وجدت نفسي في مونت كارلو وقد سعيت إليها مدفوعة بالرغبة الملحة في الابتعاد بنفسي عن حياتي التي أضحت مملة، ولكي أهرب من همومي وأفكاري، لأن حياتي كما ذكرت صارت بلا هدف أو جدوى، فليست هنالك غاية أسعى إليها أو أشغل فيها وقتي، لقد كان الدافع الحقيقي الذي ساقني إلى مونت كارلو هو الملل والضجر والفراغ والحياة الخاوية المعتمة تتضافر مع بعضها فتثقل على النفس، فتحاول الهروب ولو عن طريق ما يصادف الإنسان من أحداث تافهة عارضة، وكنت كلما شعرت بجمود مشاعري وأحاسيسي، وبوطأة السأم على روحي ونفسي، وبالخواء الذي يكاد يفتك بي، استبدت بي الرغبة في الاندفاع بكليتي في خضم الحياة المنطلق في سرعة مذهلة. إن الإنسان الذي حرم متع الدنيا ولذائذها وأهدافها، تستيقظ أعصابه من جديد وتنبض أحاسيسه بالأحداث العنيفة التي تصيب الغير، تمامًا كتأثير الموسيقى العميقة في السامعين أو الروايات التي تظهر على المسارح في الناظرين.

الفصل الرابع

قالت السيدة س وهي تواصل ذكر أحداث يومها المشهود :

عمدت إلى الإكثار من التردد على "الكازينو"، فقد كنت أستشعر لذة غريبة طاغية، وأنا أرى إمارات البهجة والفرح ترتسم على وجوه فريق من اللاعبين، في حين تزخر وجوه فريق آخر بآيات الأسى والتعاسة، بينما لا تهتز فيَّ أنا جارحة بشعور ما. وقفزت إلى ذهني ذكرى زوجي، فقد كان رغم اتزانه واعتداله يهوى اللعب ويمارسه عندما كنا نحضر إلى "الكازينو" في سالف الأيام، فرأيت أن أتعبد في محراب أحزاني بالوفاء لهوايته تلك!

وانبثق أول شعاع من حدث ذلك اليوم في تلك القاعة، وكان ذلك أشد صرامة وإثارة من كل مر بي في حياتي ودنياي. فما إن بدأت ساعات ذلك اليوم، حتى انقلب ميزان حياتي لبضع سنوات، إذ حدث أن تناولت طعام الغداء ذات يوم مع دوقة "م"، التي تربطها بأسرتي صلة قربى النسب، وانصرم النهار، وأقبل الليل، فشعرت بنشاط جعلني لا أرغب في أن آوي إلى فراشي بعد العشاء، فدلفت إلى صالة اللعب، ورحت أتنقل من مائدة إلى مائدة كالفراشة متفرجة متسلية دون أن أشترك في اللعب. فقد كانت هوايتي أن أرقب – بطريقة معينة كان قد علمني إياها زوجي الراحل– من خانهم الحظ من

اللاعبين المنتشرين على الموائد، حين رآني وقد استبد بي الضجر لتحديقي في الوجوه التي تتبدل، من سحن عجائز متغضنات، وهن يقضين الساعات تلو الساعات بغير ملل، جالسات إلى موائد اللعب، دون أن تجرؤ إحداهن على الاشتراك في شوط واحد من اللعب، أو وجوه المحترفين الماكرين أو الغانيات هاويات المقامرة. وإنه حقًّا لخليط عجيب لا يجمعه توافق أو انسجام سعى إلى هذا المكان من جميع أنحاء العالم، وهو في الحقيقة أقل بهاء وإثارة للرائي، بعكس ما درجنا على تخيله فيما نقرؤه في الأقاصيص التي تضفي عليهم ثوبًا براقًا ونموذجًا للأناقة والارستقراطية!

إنني أنقل إليك الآن ما كان يحدث منذ عشرين عامًا، عندما كان الرخاء يعم العالم والنقود تتناثر على موائد اللعب من كل الأنواع والفئات من أوراق مالية وعملات ذهبية، وكان "الكازينو" –معقل القمار العالمي– أعظم روعة وأشد بهاء وفتنة مما هو عليه الآن. وكانت أموال الوافدين إليه تنساب كالماء السائل دون وعي أو تعقل.

وكانت هذه المظاهر حرية بأن تلفت النظر وتبعث على التسرية والتسلية، ولكنني رغم ذلك ضقت برتابتها المتشابهة، إلى أن دلني زوجي –وكان نابغة في الفراسة وفي قراءة الكف– على طريقة فذة ابتكرها لتتبع الانعكاسات التي تظهر على وجوه اللاعبين، وهي طريقة عجيبة تطرد عن الإنسان ما قد يعتريه من خمول أو جمود. ومؤدى

هذه الطريقة عدم تأمل الوجوه، بل التفرس في مسطح المائدة حيث تتحرك أيدي اللاعبين وأناملهم في حركات جد عجيبة.

ولا أعلم هل سمحت لك فرصة شاهدت فيها إحدى موائد اللعب، تلك التي يسمونها الموائد الخضراء، حيث تجري فوقها الكرات في ترنح المخمور وهي تنتقل بين الأرقام، والنقود من جميع الأنواع والفئات تتساقط على مربعات الموائد كالمطر، فيجمعها المراقب أو يدفع بها إلى سعيد الحظ؟

وأطرف ما يراه الإنسان هو أيدي اللاعبين، إنه حشد من أيد متباينة، فمنها الضامرة، ومنها النحيلة المعروقة، ومنها المرتعشة في ترقب وتحفز انتظارًا لبدء اللعب ونتيجته، ثم منها العارية، ومنها ما برزت من أكمامها، ومنها ما تكدست فيها الخواتم ذات الجواهر المتلألئة، ومنها البضة الناعمة ومنها ما كساها شعر كثيف. على أنها على اختلاف أنواعها وصفاتها وأشكالها تتفق في أمر واحد هو توتر الأعصاب وانفعال الحركات والرعشة التي تنبئ عن نفاد الصبر.

ومنظر الأيدي في حركاتها أشبه بما يجري في ساحة من ساحات سباق الخيل التي شدت أعنة جيادها حتى لا تكبح في جماحها لحظة الانطلاق، فإنها –أي الأيدي– تنقبض، وترتعش، وتتراجع، ثم تندفع في حركات هستيرية وهي ممسكة بالنقود في تكالب، ثم في توقفها عن الحركة وكأنها شلت، تشي بنفسية اللاعب وشخصيته، فالأيدي ذات

الأظافر التي أهمل تهذيبها تدل على أن صاحبها شحيح، والأيدي التي تتحرك في بطء واسترخاء تنم عن إسراف، والأيدي الثابتة الساكتة تحمل معنى الدقة في تقدير نتائج اللعب، أما الأيدي المرتعشة فصاحبها مشحون بالقنوط وفقدان الأمل. فحركات الأيدي أشبه بشاشة السينما تنعكس عليها شتى المرئيات، وهي تمسك بالنقود في أشكال متباينة، فبعض الأيدي يفرك النقود، والبعض ينثرها، والبعض يقبض عليها في تشبث ثم يلقي بها في قنوط مما يدل على أن صاحبها قد منى بخسارة فادحة يحتقر معها الضئيل الذي تبقى له!

يقولون إن "اللعب مرآة اللاعب"، ولكنني لست على هذا الرأي، ففي اعتقادي أن يد اللاعب تعطي صورة حقيقية له أثناء اللعب، ومن ثم فإن جميع المقامرين، أو معظمهم على الأقل، يروضون أعصابهم على الصلابة، ويتحكمون في انفعالاتهم بحيث لا تنعكس أو تظهر دلائلها على وجوههم.فهم يتشبثون بالجمود، ويخفون حركات أفواههم، ويبتلعون أحاسيسهم النفسية والعصبية، ويقيمون سدًّا بين عيونهم الواشية وسرائرهم الدفينة حتى لا تشي عيونهم بانفعالاتهم، ويتظاهرون بعدم الاكتراث. إنهم بكل ذلك يحصرون كل اهتمامهم في وجوههم ناسين أيديهم، دون أن يلحظوا عيون الرقباء المسلطة على تلك الأيدي فيستشفون منها ما جهد أولئك في إخفائه على وجوههم، فلا تغرهم الابتسامة الصفراء المغتصبة أو التظاهر بعدم الاكتراث.

ولا شك أن اليد عنصر فعال يميط اللثام عن أعمق الأحاسيس، ولابد من لحظة يخونها فيه ثباتها الاضطراري، وذلك في اللحظة التي تستقر فيها الكرة عند نهاية مطافها في لف ودوران، فتعلن بذلك عن الرقم السعيد. فتصدر عن مئات الأيدي حركات تشنجية لا إرادية هي أقوى تعبير يفصح عن غريزة الإنسان، وقد وجدت بالخبرة أن مراقبة حركات الأيدي العصبية والتي تكشف عن مدى انفعال صاحبها، أشبه بمشاهدة مسرحية مؤثرة أو سماع موسيقى تثير الشجن!

ولا أطيل عليك في وصف المئات من حركات تلك الأيدي المتباينة، فبعض هذه الأيدي خشن ذات أصابع صماء تقبض على النقود في استماتة، وبعضها لا تزايله الرجفة فيتهيب من لمس النقود، ويمكن القول إن لكل يد ما يميزها عن غيرها، حتى لقد تختلف اليد اليمنى في حركاتها عن اليسرى في الشخص الواحد، أما أيدي المراقبين فعلى العكس من ذلك، فهي مجرد أعضاء جامدة ذات حركات منتظمة رتيبة، وهي تحدث أصواتًا غريبة وهي تلوح هنا أو هناك، ولها تأثير سحري عجيب في اللاعبين، فهي بمثابة القائد الذي يحسم الأمر في ثورة جامحة!

ولا يفوتني أن أنوه بالمتعة التي كنت أستشعرها في مراقبتي لهذا الخضم من الانفعالات وحركات الأيدي، وكان ظهور أيد جديدة مبعث سرور كبير عندي، فكنت أبادر إلى تأملها، ولا أكون مبالغة

حين أقول إنني كنت أعتبرها وكأنها أشخاص، منها ما يروق لي ومنها ما لا يروق، وكنت أتقزز من بعضها فلا أتطلع إليها ولا يعنيني أمرها. وكأني أرى فيها منظرًا يبعث النفور في النفس! بيد أنني كنت أجد متعة كبيرة في كل يد جديدة لأنها تثير عندي شعور الفضول وحب الاستطلاع، وكثيرًا ما كنت لا ألقي بالًا إلى الوجوه سواء أكانت للرجال أو السيدات.

وكنت قد مررت بمائدتين تكاثر الناس حولهما عندما وطئت قدماي "الكازينو" في تلك الأمسية التي بدأت فيها حكايتي، وما إن اقتربت من المائدة الثالثة حتى أخذت أحصي بعض القطع الذهبية وإذا بي أرى ما أدهشني، فقد ران على المائدة وجوم وصمت مفعمان بالتحفز، وخيل إليَّ أنني أسمع صوت الصمت، إن كان للصمت صوت. فقد اقتربت الكرة من نهاية مطافها، ولم يبق إلا لحظة تستقر بعدها بعد الرقم المحظوظ، وإذا بي وسط هذا الصمت الرهيب أسمع صوتًا غريبًا في مواجهتي يشبه صوت العظام حين تتهشم! وملأني الذعر حين تطلعت ناحية الصوت لأرى يدين ليس لهما نظير، وقد أطبقت إحداهما على الأخرى في التحام عنيف وفي شدة وحشية، فانطلق منهما ذلك الصوت الغريب الذي يشبه شيئًا صلدًا يتكسر.

وراعني أن أرى الجمال في هاتين اليدين، ذلك النوع النادر من الجمال، فقد كانتا طويلتين في إسراف، شديدتي النحول، ولكن

عضلاتهما خارقة في القوة، كما كانتا في بياض الثلج، وفي أطرافهما أظافر كالحة لامعة شذبت في عناية، ووجدت نفسي لا أكف عن التحديق فيهما، فقد أخذتني الدهشة لهاتين اليدين العجيبتين، وراعتني حركاتهما وهما تتصارعان في عصبية وعنف، وأيقنت أنهما لرجل تضاهي قوته قوة هرقل، وأن قوته تلك تجمعت في أصابعه، ففاضت بها حتى لا يكبتها فتقضي عليه. وانفصلت كل من اليدين عن الأخرى، وتراختا على المائدة بلا حراك في اللحظة التي استقرت فيهما الكرة وأعلن المراقب الرقم المحظوظ، وقد نمت اليدان في ارتخائهما عن هلع وأسى يعجز أبلغ بيان عن وصفهما. فكأنما أردتهما رصاصة أو انقضت عليهما صاعقة. لقد كانتا يدين لشخص سرت روح المقامرة في عروقه ودمه، فعبرتا عن انفعالاته أصدق تعبير!

استلقت اليدان على المائدة، وظلتا كذلك برهة وكأنهما سمكتان ميتتان لفظهما البحر وألقى بهما على شاطئه، يبعث منظرهما في النفس غثيانًا. وبعد فترة أخذت أصابع اليد اليمنى تتحرك في ارتجاف، ثم تتقلص في انكماش وتتردد، وتمسك "فيشة" في حركة عصبية وتقلبها في حيرة، ثم إذا باليد تتراجع فجأة وكأنها أسد يتحفز للهجوم، فتقذف "بالفيشة" إلى حيث المربع وكأنها لقمة غير سائغة تلفظها. وفي هذه اللحظة اضطربت اليد اليسرى بعد استرخاء، ونهضت إلى زميلتها اليد اليمنى التي كانت ترتعش في تشنج، وكأن إلقاء "الفيشة" قد هدها واستنفد قواها، وراحت اليدان ترتجفان معًا، فصدر عنهما صوت

كصرير الأسنان حين تصطك تحت وطأة المرض، وأخذتا ترتطمان بالمائدة بشكل لا شعوري.

أجل.. لم يحدث أن رأيت –على طول عهدي بالسنين– يدين بليغتين في التعبير كهاتين اليدين التي ترجمت اختلاجاتهما جميع المشاعر والأحاسيس، حتى لقد تضاءل بجانبهما كل نشاط كان يجرى في حجرة اللعب من همهمة وصياح وغدو ورواح، بل في حركة الكرة ذاتها وكأنها في قفزاتها جواد هائج جامح. لقد تضاءل كل ذلك على تعاقبه –في نظري– بجانب هاتين اليدين المنتفضتين العجيبتين اللتين استغرقتا كل انتباهي وتفكيري!

واستبد بي الفضول الجارف لأن أتطلع إلى وجه صاحب هاتين اليدين النادرتين، فاختلست النظر في حذر وتوجس، فقد كانت اليدان تبعثان الرهبة في نفسي، وزاد ارتياعي حين انتقلت بنظري من اليدين إلى الذراعين، ثم إلى الكتفين اللذين يعلوهما وجه لا يقل في ثورته وانفعاله عن اليدين، تنم أساريره عن صراع عنيف. بيد أن الوجه كان دقيق التقاطيع نموذجًا لجمال فريد رائع وكأنه وجه حسناء فاتنة! لم يسبق لي أن رأيت وجهًا يضارعه في بهائه، حتى ليُخيل إلى الإنسان أنه ليس وجه ذلك الجسد الذي يحمله، وكأنه وجه ناعم رقيق مستعار لجسم مارد مكتمل الرجولة!

وأشبعت غريزة الفضول، فرحت أتأمله مليًّا، فخيل إليّ أن قناعًا

يكسوه فيخفي حقيقة أمره، أو أنه رجل صناعي لا حياة فيه، فقد كانت عينه ثابتة لا تطرف إلا نادرًا وفي ومضات خاطفة، كما كانت حدقة العين السوداء ساكنة هي الأخرى وكأن لا حياة فيها، ينعكس عليها طيف كرة اللعب وهي تجري في جنون داخل الصندوق المستدير!

الفصل الخامس

سكتت السيدة س قليلًا لتسترد أنفاسها، ثم استطردت:

كان ذلك الوجه الجميل الفاتن الزاخر بشتى الأحاسيس والانفعالات، وجه شاب في حوالي الخامسة والعشرين من العمر. كان وجهًا دقيقًا يميل إلى الاستطالة، يترجم في وضوح ما ينتابه من أحاسيس، ولا يمت لمظاهر الرجولة بسبب، فكأنه وجه طفل يلهو في براءة. وقد أدركت ذلك فيما بعد، فقد بدا لي لأول وهلة محتجبًا خلف قناع من الأحاسيس الانفعالية التي تدل على جشع مستعر مضطرم. وكان فمه دقيقاً وكأنه فم فتى يافع، أطلت من بين شفتيه الزاخرتين بالحيوية أسنان كانت تصطك في تشنج وانفعال، بينما الشفتان ثابتتان منفرجتان، وزادت من بهاء طلعته تلك الخصلة من الشعر الذهبي اللامع المسترسل –في غير تموج– التي انسدلت على جبينه. وراحت فتحتا أنفه تهتزان في اختلاج متواصل، وكأن تيارًا كهربائيًّا يدفع موجاته فتسري تحت صفحة وجهه، وأخذت رأسه تزداد انحناءً إلى الأمام، دون وعي منه، فقد كان يتابع بكل جوارحه حركة الكرة في دورانها.

كانت يداه واقعتين تحت تأثيره، فقد كان اشتباكهما لكي يحفظ توازن ذلك الجسد الذي فقد القدرة على الصمود. ولا يضيرني أن أعيد القول إنني لم يصادفني في حياتي وجه يزخر بالمشاعر الدافقة في

سفور واضح كهذا الوجه، فوجدت نفسي –تلقائيًّا– أتفرسه في نهم، وقد أخذتني تلك النظرات الحائرة التي كان يتتبع بها الكرة في حركاتها. وقد شغلني ذلك عن أي أمر عداه، فلم أعد ألقي بالاً إلى شيء آخر، لأنه استحوذ على كل اهتمامي حتى بدا لي أنكل أمر آخر تافه عديم القيمة، معتم، بجانب ذلك البريق الذي يتدفق من ذلك الوجه.

وظللت ساعة بأكملها وأنا شاخصة إليه وحده دون سواه، قضيتها في التفرس فيه وتأمل ومتابعة كل حركة من حركاته وخلجة من خلجاته، وعلى حين غرة، ومضت عيناه ببريق مؤتلق وهاج، وافترقت يداه عن بعضهما، وانفصلت الأصابع عن بعضها في حركة عصبية، حين وضع المراقب في اليدين عشرين قطعة ذهبية، أطبقتا عليها في استماتة، فأشرق الوجه، وزايله الانفعال، واكتسى بالبشاشة ونشوة الصبا. فنمت أساريره عن غبطة وتألقت عيناه، واعتدل رأسه بعد انحناء في رشاقة واطمئنان، فانتصب في وقفته وقد انتشى بالفوز، وراح يقلب القطع الذهبية بين يديه فتحدث رنينًا محببًا.

وراح الشاب ينظر إلى رقعة المائدة ثانيًا كأنه ينشد صيدًا جديدًا، وبحركة عصبية وضع القطع الذهبية جميعها في لهفة على أحد المربعات، ثم أخذ يترقب النتيجة، وعاد الانفعال يعتريه من جديد. فأخذت شفتاه تهتزان وتوترت يداه، وارتسم على الوجه الذي كان قد هدأ قلق جارف، واستمر الأمر هكذا إلى أن فعل القنوط فعله، فاسترخت

اليدان وشحب الوجه الذي كان منذ لحظة يفيض بالشباب والحيوية، فأضحى وكأنه وجه كهل ذهب تألق عينيه.

وقد حدث ذلك بين غمضة عين وانتباهتها، فقد استقرت الكرة على غير الرقم الذي وضع فوقه قطعه الذهبية. وبذلك جانبه الحظ، وأخذ يرسل نظرات بلهاء بلا وعي أو شعور، ومرت على ذلك بضع ثوان أعقبتها صيحة من المراقب نبهته وكأن مسًّا كهربائيًّا سرى في جسده، فتناول قطعًا ذهبية أخرى ووضعها في أحد المربعات ثم نقلها إلى مربع آخر. وإذ بدأت الكرة تتحرك، عاد فتناول ورقتين ماليتين ألقى بهما في نفس المربع الذي اختاره كأنما أوحي إليه أن يفعل ذلك.

وتأرجح به الحظ بين ربح وخسارة ساعة أو بعض ساعة، لم أكف خلالها عن التطلع إلى ذلك الوجه الذي تتناوبه شتى المشاعر والأحاسيس تبعًا لنتائج اللعب من إقبال الحظ أو إدباره. كما لم أكف عن متابعة يديه الساحرتين وهما ترتفعان وتنخفضان وكأنهما كرة تتقاذفها الأمواج، وهما تنمان بحركاتهما عن انفعالات صاحبهما التي لم أر لها مثيلًا على وجه أكفأ المملثلين براعة. انفعالات وأحاسيس كأنها أضواء تعكس مرئيات طبيعية، وما انصرفت يومًا من الأيام بكليتي، وحصرت اهتمامي في أمر من الأمور أو شيء من الأشياء، مثلما انصرفت إلى تأمل هذه الفورة المضطرمة. وأنا واثقة لو أن أحدًا راقبني حينذاك لذهب به الظن أنني كنت واقعة تحت تأثير تنويم مغناطيسي، فقد كنت مسلوبة الحس كلية.

وما كان باستطاعتي أن أحول نظري عن التطلع إلى هذه الانفعالات التي كانت تتعاقب في إثر بعضها. فقد كان كل ما أسمعه من ضحكات أو زفرات، وكل ما أراه من نظرات وانطباعات ومخلوقات وكأنه أشباح تخطر أمامي في صورة باهتة، عدا ذلك الوجه الذي خيل إليَّ أن هالة من النور تحيط به فتجعله واضحاً دون سواه. فلم أعد أعي شيئًا مما حولي أو أسمع صوتًا أو أرى القوم في تدافعهم، فلم تستقر أمام عيني سوى هاتين اليدين، وهما تقذفان بين الفينة والفينة بالنقود فوق المائدة أو لتجمعاها. بل إنني لم أعد أفكر في أن أنظر إلى الكرة لأتابع حركاتها وموضع استقرارها، أو أنصت إلى المراقب وهو يعلن النتائج، ومع ذلك تراءى لي كل شيء واضحًا، وأنا أراقب يدي الشاب واختلاجاتهما، وخيل إليّ أنني في حلم لا في يقظة واقعية!

لم أكلف نفسي عناء التطلع إلى المائدة لأتبين اللون الذي استقرت عنده الكرة، أو أنها قد استقرت فعلًا، أم لا تزال تجري كما في فلك دورانها. فقد كنت أقرأ نتيجة كل شوط، ربما كان مكسبًا أو خسارة، في انفعالات ذلك الوجه الذي استغرقته شهوة المقامرة واستبدت بأعصابه واختلاجاته.

وحلت لحظة قاسية رهيبة، كنت أتوجس منها في قرارة نفسي، ناءت بها أعصابي المتوترة، كما ينوء المرء تحت وطأة العاصفة قبل أن تدهمه، فقد رأيت الكرة تتباطأ في تثاقل وأخذ الصوت الذي تحدثه يخفت رويدًا.

وأصبحت اللحظة الحاسمة وشيكة الحلول، والتي تتقلص فيها الشفاه لتحبس الأنفاس القلقة المترقبة اللاهثة، حين أعلن المراقب أن رقم "صفر" هو الفائز، وأخذ يجمع النقود الذهبية والورقية من مربعات المائدة. فندت عن اليدين حركة تفيض بالهلع، قد انتفضتا في عصبية، ثم استرختا في إعياء وتهالك، وكأنما تحت وطأة ثقلهما قد جذبتهما قوة طاغية نحو المائدة، فراحتا ترتعشان في ألم. وفجأة دبت الحيوية فيهما، فانحسرتا عن المائدة واتجهتا إلى جسم صاحبهما تتلمسان جميع جيوبه بلهفة شديدة لعل بأحد هذه الجيوب قطعة من نقود لم ينتبه إليها، ولكنهما وجدتا الجيوب خاوية فعاودتا البحث مدفوعة بالأمل دون جدوى، وعاد اللاعبون فاستأنفوا اللعب، وعاد رنين النقود الذهبية يطن في الآذان، وأخذت المقاعد تتحرك وتتنقل، وامتلأ الجو بالهمسات والتكهنات. أما أنا فقد اعترتني رجفة شديدة وشملني قنوط قاتل، فقد وجدت نفسي دون أن أشعر قد اندمجت في تل الأحاسيس والمشاعر، وكأنني أنا التي رحت أنقب بين جيوبي عن قطعة نقود منسية!

وفجأة انتصب الشاب واقفًا، وكأنه أصيب بما هد قواه، وأخذ يتمطى حتى لا تختنق أنفاسه، وترنح المقعد من خلفه تحت تأثير وقفته المباغتة، وهوى على الأرض محدثًا صوتًا شديدًا. بيد أن الشاب لم يلق بالًا إلى ما حدث، ولم يكلف نفسه عناء التطلع إلى من بالقاعة من المقامرين الذين أخذتهم الدهشة وهالهم منظر الشاب الذي كان يهوى إلى الأرض من فرط القنوط، ولكنه تحامل على نفسه وأخذ يبتعد عن

المائدة في خطى متئدة متثاقلة!

وهالني ذلك المنظر، فشعرت أنني مشدودة إلى مكاني لفرط هلعي، وأيقنت بالبديهة أن الشاب في طريقه إلى لقاء حتفه. فلم تكن الطريقة التي نهض بها توحي بأنه ذاهب إلى نزهة أو حفل سمر أو ملهى أو أن موعدًا له مع امرأة قد حان فهو ساع إلى مخدعها، وإنما ارتسم على صفحة وجهه في جلاء أنه اعتزم أمرًا جللًا، اعتزم أن يضع حدًّا لحياته فيموت. ولم يكن ذلك ليخفى على أبسط العقول، أو حتى أصحاب النظرة السطحية، فقد بدا واضحًا أن الشاب قد أفلس ولم يعد يملك بنسًا واحدًا في جيبه أو بيته، وأنه قامر بكل ما يملك، فاستقر رأيه على أن يقامر بما تبقى له في الدنيا، بحياته، فسار بتلك الخطى الوئيدة المتعثرة نحو المجهول، الذي لابد وأنه خارج نطاق الحياة.

وكان قد خالجني الشعور بالتوجس منذ طرقت هذا المكان، أن ممارسة المقامرة لا تقتصر على الربح والخسارة، بل إن لها آثارًا أعمق غورًا وأبعد مدى من ذلك بكثير، آثارًا لا تنحصر في المال فقط بل في حياة الإنسان وصيرورته، لذلك هالني أن أرى شبح الموت يحوم حول الفتى، وقد تجلى ذلك لما رأيته من شحوب على وجهه الذي لا يزال في نضارة الشباب. فلما رأيته ينهض متحاملًا في إعياء بالغ، تقلصت قبضتاي لا شعوريًّا، لأنني كنت قد انصرفت بجميع حواسي إليه. فأثرت في نفسي خطواته المتعثرة، كما أثرت انفعالاته من قبل في

أعصابي، ووجدت نفسي أتبعه تلقائيًّا بدافع قوة لا إرادية، ودون وعي مني أو انتباه رحت أهرول في الممر المفضي إلى الخارج، وكأنني منومة تنويمًا مغناطيسيًّا أو إحدى صريعات مرض السير أثناء النوم!

في تلك اللحظة كان الشاب قد دلف إلى حجرة الثياب، وقد حمل الخادم معطفه، ولكن ذراعي الشاب وهنتا كما لو كان قد أصابهما شلل، فراح الخادم يعاونه وكأنه يعاون طفلًا صغيرًا لا يدري كيف يرتدي معطفه أو عاجزًا يقعده المرض عن ارتدائه في سهولة. ولمحت الشاب يبحث بطريقة آلية عن قطعة من النقود في أحد جيوبه ينفح بها الخادم دون جدوى. وبدا لي في هذه اللحظة أنه استعرض كل ما مر به في غرفة اللعب وتذكره، فلم يسعه إلا أن يتمتم ببضع كلمات مبهمة كأنه يعتذر بها للخادم.

وكما حدث حين انتصب واقفًا في حجرة اللعب، سار فجأة إلى الخارج وأخذ يهبط السلم متعثرًا كالمخمور. فأشحت بوجهي لأنني استشعرت بالضيق والكآبة فقد تراءى لي أنني أمام مأساة من مآسي اليأس وتجربة من تجارب الحياة القاسية، يعانيها شخص لا يمت لي بصلة. فشملني ألم قاتل استغرق كل مشاعري وكياني، وجعلني أتبع الشاب، فتناولت معطفي وارتديته على عجل، وبلا شعور، ودون وعي أو تفكير، اندفعت في غمرة الظلام مقتفية أثر الشاب وخطواته.

الفصل السادس

ران الصمت على السيدة، وتوقفت عن الكلام. وكانت طوال حديثها قابعة في مقعدها في سكون دون حراك، ولم تتوقف عن الحديث إلا نادرًا ريثما تسترد أنفاسها، يشملها ذلك الهدوء المعروف عنها. كما كان حديثها واضحًا جليًّا كأنما كانت قد أعدت نفسها له إعدادًا كاملًا، فقد سردت الحوادث في ترتيب وتنسيق بديعين. وأطالت الصمت في هذه المرة، وبعد شيء من التردد تركت سياق القصة جانبًا وأخذت تحدثني موجهة إلى الكلام قائلة:

"غني عن القول أنني أخذت على نفسي عهدًا بأن أقص لك الموضوع، وأن أسرد دقائقه في صدق وصراحة دون مواربة أو دوران، ولذلك أرى لزامًا عليّ أن أرجوك أن تثق كل الثقة فيما أرويه، وألا ينصرف ذهنك إلى تعليل تصرفي إلى بواعث عاطفية أو جنسية يخجلني أن أفكر فيها الآن. فإن خطر ذلك ببالك، فسيكون قد جانبك الصواب وستتراءى لك احتمالات أبعد ما تكون عن الحقيقة والواقع، ولذلك فمن الضروري أن أجعلك توقن أنني حينما اقتفيت أثر ذلك الشاب المحطم الموشك على الهلاك، لم أكن قد استشعرت عاطفة حب نحوه على أية صورة من الصور، وإنني أنفي عن نفسي أنني نظرت إليه نظرة أنثى إلى رجل أو نظرة جنس، لأنني –وأصدقك القول– كنت

قد نيفت على الأربعين في ذلك الحين ولم يشغل فكري بأي رجل بعد وفاة زوجي. بل اعتبرت ذلك أمرًا ولى وانقضى وصار في سجل الماضي، ولابد لي من أن أذكر لك ذلك على وجه التدقيق، وإلا فلن تدرك ما تلا ذلك من أحداث لبشاعتها وشناعتها.

وإنه لمن العسير عليَّ حقًّا أن أصور الشعور الذي انتابني والذي لم أجد في نفسي القدرة على مقاومته تصويرًا دقيقًا. ذلك الشعور الذي دفعني إلى تتبع ذلك البائس، ولا شك أن الفضول كان أحد الدوافع، ولكن أعتقد أنه يرجع بالأكثر إلى الهلع والتوجس من حدوث أمر رهيب، ولا أكون مبالغة إذا ذكرت أنني استشعرت ذلك منذ اللحظة الأولى التي رأيت فيها ذلك الشاب. وليس باستطاعتي تحليل أو تعليل تلك المشاعر فهي غامضة كل الغموض، وبخاصة لأنها كانت متلاحقة متشابكة في عنف وسرعة ودون تفكير أو سابق تدبير. وأقرب تشبيه يعن لي الآن أنني تصرفت كشخص هم بإنقاذ طفل يوشك على الهلاك بإلقاء نفسه تحت عجلات سيارة أو قطار، وكيف تعلل الدافع الذي يحدو بشخص ما لا يعرف من شئون السباحة شيئًا، ورغم ذلك يلقي بنفسه في اليم محاولًا إنقاذ إنسان يشرف على الغرق. لابد وأن هناك قوة غير مفهومة أو إرادة غامضة تطغى على تفكير الشخص فيقدم دون وعي على أمر ترجح فيه كفة هلاكه.

هكذا تمامًا كنت أنا، فقد اندفعت بلا وعي أو تبصر أو روية،

فرحت أتعقب ذلك اليائس البائس من حجرة اللعب إلى حجرة الثياب إلى الباب الخارجي ثم إلى فناء "الكازينو". وأنا على يقين أنه ما كان في وسع أحد غيري –رأى ما رأيته– أن يقف مكتوف اليدين، أو يستطيع مقاومة الفضول إزاء أمر مثير يبعث القلق في النفس. وهل هناك منظر يدعو إلى الإشفاق والأسى أشد تأثيرًا من منظر فتى لا يزال في ميعة الشباب، وقد أخذ يجر قدميه في تهالك ويأس –وقد تحطمت قواه– إلى مصير مجهول؟!

ورأيته وقد تهالك في إعياء بالغ على أحد المقاعد في فناء "الكازينو" وكأنه جثة آدمية لا حراك فيها، فانتابتني موجة من الارتجاف ورعشة شملت كل أوصالي، وأيقنت أن الشاب قد استنفد كل طاقة على المقاومة وأن اليأس قد استبد به إلى أقصى مداه. فهذه حال من فقد كل حساسية، ولم تعد تنبض فيه عضلة حية، فقد مال رأسه إلى الخلف متكئًا به على ظهر المقعد، وتدلت ذراعاه مسترخيتان شأن من فارقته الحياة، ولو أن أحدًا رآه في وضعه هذا لما شك في أنه قد قُضيَ.

وخيل إليّ ذلك أنا أيضًا، وليس باستطاعتي تفسير قيام هذه الصورة بذهني. بيد أنه هكذا تراءى لي، وكأن ما أراه حقيقة واقعة ملموسة مروعة. فخيل إليّ أنني أمام جثة لشاب فارقته الروح في ميعة الصبا قبل الأوان، ولم أشك في أنه يحمل مسدسًا، وأن أمره لن يلبث

أن يكتشف هكذا هامدًا غارقًا في بركة من الدماء، وكأنه حجر قذف به في هاوية فاستقر في قاعها. لقد كان كتمثال ينطق باليأس القاتل والإعياء المهلك، لم أر له نظيرًا من قبل.

تصور موقفي إزاء ذلك! لقد وجدت نفسي في مأزق لا أحسد عليه، في ورطة عز عليّ التصرف فيها. فقد كنت على قيد خطوات من رجل تهالك وتداعى وفقد كل طاقة وحركة، وحزب بي الأمر، واشتدت حيرتي فلم أستطع التفكير فيما يجب أن أفعل، وتنازعتني الرغبات والهواجس، فأنا أشعر بالرغبة في إنقاذه ومد يد الغوث له، وفي الوقت نفسه، أستشعر الجزع من الإقدام على مخاطبة رجل غريب عني –تحت تأثير ما درجت عليه في حياتي ومن تربيتي– وكان السائرون القليلون يحثون السير على ضوء المصابيح الشاحبة، وتحت السماء التي تلبدت بالغيوم في ذلك الليل البهيم الذي كاد أن ينتصف، وبذا وجدت نفسي منفردة في ذلك المكان، مع ذلك الشاب الموشك على الانتحار والهلاك.

وشددت من عزيمتي أكثر من مرة، وهممت بأن أدنو من الشاب، بيد أنني كدت أعدل وأتراجع بدافع لعله الخجل أو الحياء، أو لعله بدافع الإحساس الغامض الذي يوحي إلى النفس بأن المشرفين على الهلاك يجتذبون معهم من يخف لإغاثتهم، أو لعله بدافع الغريزة التي تهيب بالنفس أن تنأى عن مواطن الهلاك ناجية بنفسها. وبينما أنا في

غمرة هذه الدوامة، أدركت مدى الحرج الذي وضعت نفسي فيه ورميت نفسي بالحماقة، وتبلد تفكيري، فلم أستطع أن أنطق بكلمة، ولم يسعفني ذهني فيرشدني إلى أن أفعل شيئًا، حتى إلى أن أترك الشاب لشأنه. ولا أكون مبالغة إذا قلت إنني ظللت على تلك الحال ساعة خلتها شهرًا، بينما كانت أمواج البحر التي يحجبها الظلام الدامس عن عيني تتدافع متعاقبة مع الزمن السائر الذي لا يتوقف، وأنا في حيرة وأسى واضطراب أمام مشهد لمأساة تمثل نهاية مفجعة لواحد من بني الإنسان!

شل تفكيري وشلت حركتي، فلم تسعفني القريحة بكلمة، ولم يسعفني العقل بعمل أو إجراء أقدم عليه أو أقوم به، وكان من الممكن جدًّا أن أظل على تلك الحال حتى ينبلج الصبح، أو أن أعود القهقري من حيث أتيت بدافع من حب الذات أو الأنانية –أو كما سبق أن ذكرت– بدافع الغريزة التي تهيب بالنفس أن تنأى عن مواطنالهلاك وتلوذ بالنجاة، وأعتقد أن رأيي كان قد استقر على أن أدع هذه الكومة التعسة لشأنها ومصيرها، لولا أن قوى جارفة قضت على ترددي وبلبلة أفكاري. فقد أخذ المطر ينهمر حين جمعت الريح السحب المشبعة ببخار الماء الذي أثقلها، فأخذت تتساقط غيثًا، ثم صارت سيلًا مدراراً، وكأنما يطاردها مطارد. فلجأت تلقائيًّا إلى إحدى المظلات أحتمي بها من المطر، ورغم ذلك فقد انتثرت حباته على ثيابي فبللتها، بل إنني شعرت بالرذاذ على وجهي ويدي.

وقد كان المنظر مروعًا بالغ الرهبة يلفني الهلع كلما تذكرته، وظل المسكين رغم كل هذا جامدًا لا يتحرك، ولا تبدر منه بادرة حياة، وظل المطر ينهمر في غزارة فيجري ماؤه جارفًا، بينما كانت طرقعة عجلات العربات تترامى إلى سمعي من المدينة. كما كان الناس يحثون السير ويسرعون الخطى، وقد التفوا في معاطفهم، وعمد كل مخلوق إلى الانكماش، وأخذ ينشد ملاذًا يقيه وقد انتابه فزع شديد. فنشرت الطبيعة الثائرة سلطانها على مخلوقات الله فبثت فيهم الخوف ودفعتهم إلى التماس الاحتماء، عدا ذلك التعس المسكين الذي ظل جامدًا في مكانه دون حراك ولا يشعر بشيء!

لعلك تذكر ما سبق أن قلته لك عن القدرة البالغة التي تميز بها الشاب في التعبير عن اختلاجاته وأحاسيسه بما يعتري وجهه ويديه من حركات وتقلصات. بيد أنه لم تكن هناك صورة حقيقية لليأس وفقدان الشعور بالحياة من ذلك الجمود المطبق، بالرغم من انهمار المطر، وذلك الإعياء الشديد الذي جعله لا يقوى على التحرك التماسًا لمأوى يحتمي به.لقد نسى نفسه وفقد كل مشاعره، لقد كان مثالًا ناطقًا لليأس والقنوط والشقاء، إذ ترك نفسه فريسة لهلاك محقق.

ووجدت نفسي أمام أمر واقع، وأنه يتحتم عليّ ألا أقف مكتوفة اليدين، بل لابد لي من إجراء فعال أستجمع شجاعتي فأقدم عليه، وسرعان ما اقتربت منه غير مبالية بذلك السيل المنهمر من المطر،

وأخذت أجذب ذلك الجسد الجامد الذي بلله الماء وصرخت فيه وأنا أحرك ذراعيه المتراخيتين: "انهض!" فطالعني بوجه مكفهر، وتطلع إليّ بنظرات زائغة، وأحسست أن ذلك الجسد المتهالك لا تزال فيه بقية من حياة، بيد أن نظراته لم توح بأنه أدرك ندائي. فأعدت الكرة وأنا أجذبه من كتفه، وصرخت فيه بصورة تنم عن غضب وأمر: "قم!"فتحامل على نفسه، ونهض في ترنح بصورة آلية، ثم قال: "ماذا تريدين مني؟".

وبعث سؤاله الحيرة في نفسي فلم أحر جوابًا، لأنني لم أفكر –وقد أقدمت على مد يد العون له– في المكان الذي أذهب به إليه، فقد كان كل اهتمامي أن أحميه من المطر والصقيع، وأن أبث فيه روحًا من الحيوية والهمة لأنزع منه روح التخاذل الذي أسلمه إلى يأس مهلك، وظللت متشبثة بذراعه، ثم أخذت أسحب ذلك الجسد المضني حتى بلغت دكانًا صغيرًا لبيع الأزهار، تعلوه حافة تدرأ المطر المنساب الذي حوله الريح إلى سيل جارف، وكانت أمنيتي أن أقي المسكين من ذلك السيل الجارف، وانصرف تفكيري إلى العثور على مأوى له.

هكذا عفوًا وجدت نفسي بجانبه في ذلك المكان الضيق الذي لجأنا إليه التماسًا للحماية من المطر أمام الدكان الذي كان بابه مغلقًا، وحافته ليست من الاتساع بالقدر الذي يقينا تمامًا. فكان الماء يصيب وجهينا وملابسنا، وضقت ذرعًا بذلك المأزق الذي وضعت نفسي

فيه، فما كان باستطاعتي أن أطيل البقاء على هذا الوضع إلى جوار رجل غريب عني، وفي الوقت نفسه كان من المتعذر أن أتركه للقدر بعد أن آليت على نفسي أن أنقذه، فقد رأيت أن الواجب يقتضيني ذلك. وفكرت في الأمر من جميع الوجوه، فهداني تفكيري إلى ما رأيت أنه أفضل ما يمكن عمله وهو أن أستقل عربة توصلنا إلى محل إقامته، ثم أعود أدراجي. وقدرت أنه لابد سيفكر في أمر نفسه ومصيره في الغد.

ونظرت إلى الكائن البشري الماثل إلى جانبي والذي كان يرسل نظرات زائغة في ذلك الليل المدلهم، ثم سألته عن محل إقامته، وأدهشني جوابه الذي نطق به، فقد كان آخر ما كنت أتوقع أن أسمع. إذ أنبأني ألا مأوى له، وأنه حضر في تلك الليلة من سنيس وأنه لم يكن يتوقع أن يحظى برفقة أحد، ولم أفهم مقصده في مبدأ الأمر، ولكنني أدركت فيما بعد أنه ظن أني إحدى الفراشات الرخيصة من أولئك الغواني اللائي يجئن إلى "الكازينو" طمعًا في أن يصبن بعض المال السائل على الموائد من بعض الرواد الذين يسعدهم الحظ ويبتسم لهم، والذين أدار المال والخمر عقولهم فيسهل إغراؤهم، ويكونون بمثابة الصيد لأولئك الغواني اللائي يعج بهن ذلك المكان الذي يتحول فيه المال إلى شيء رخيص سهل البذل. وعجبت كيف ذهبت الظنون بذلك التعس الذي كان منذ لحظة مشرفًا على الهلاك إلى هذا الحد الذي لم يخطر لي ببال، وقد التمست له العذر، فأية فكرة كان يمكن أن تراوده غير تلك

الفكرة، بعدما رأى من تطفلي وبعد أن حملته على النهوض من مقعده دون معرفة أو حرج؟! إنني لا أنكر أن مسلكي هذا لا تقدم عليه سيدة تحترم نفسها. بيد أنني لم أضع ذلك موضع الاعتبار وقتذاك، وقد أدركت بعد فوات الأوان مدى احتقاره البالغ لي، ولو أنني فهمت مغزى كلامه في حين نطق به، ما تصرفت ذلك التصرف الذي أوحى إليه بأنه صادق في ظنونه!

الفصل السابع

ظن التعس بي السوء حين أشرت عليه أن يأوي لتوه إلى حجرة في أحد الفنادق، فأفحمني برد قاس جعلني أفطن إلى ظنه الخبيث.. إذ أنبأني في سخرية لاذعة دون أن ينظر إليَّ أنه ليست به حاجة إلى غرفة، وليست به رغبة في شيء، وأنه أحرى بي ألا أسعى وراء ذلك، وأنني أخطأت في اختياره بالذات لأنه لا يملك نقودًا. قال ذلك بأسلوب ناب وفي سخرية مثيرة!

وبدا في وقفته المتراخية واستناده على الجدار منفرًا يبعث الاشمئزاز في النفس، فقد كان واهنًا ومبتلًّا. وآلمني جدًّا ذلك التصرف من جانبه نحوي حتى جعلني أحس بمرارة الإهانة التي رماني بها في قحة بالغة وعدم تبصر، بيد أن ذلك لم يغير من شعوري نحوه، الذي يتلخص في أن أمامي شابًّا في مقتبل العمر دفعه اليأس إلى الإقدام على الانتحار، وأن الواجب الإنساني يقتضيني أن أنقذه، فاقتربت منه وهمست في أذنه ألا يفكر في أمر المال، وطلبت إليه أن يصحبني، لأن البقاء هكذا لا يجدي، وأنني سأتولى البحث عن مأوى، وما أردت بذلك سوى أن أتم المهمة التي أخذتها على عاتقي لكي أجنب المسكين سوء المصير!

وتململ الشاب وهز رأسه بحركة تنم عن اقتناع، إذ إن المطر ينهمر

في سيل جارف وينساب ماؤه بين أقدامنا بحيث يتعذر علينا أن نتقدم خطوة واحدة. ولمحته يختلس النظرات إلى وجهي، وكانت هذه أول مرة يفعل فيها ذلك. وبدا كأنه أخذ يسترجع قواه ويفيق مما ألم به ويعي ما يجرى، إذ ما لبثت أن رأيته يوافق على ما ارتأيته ولكن في عدم مبالاة، إذ أردف موافقته بقوله إن كل شيء عنده سواء فلماذا يعترض؟!

واقترب مني عندما بسطت مظلتي، وأدهشني وبعث في نفسي التقزز أن أراه يضع ذراعه تحت ذراعي كأن الكلفة قد زالت بيننا، وتوجست من ذلك، وشعرت بدبيب الخوف ينفذ إلى قلبي، بيد أنني آثرت ألا أصده أو أرده أو أشعره بعدم لياقة ذلك الفعل من جانبه، لأنني خفت أن يورده اعتراضي موارد الهلاك. فأكون قد قضيت على ما آليت نفسي عليه قضاء مبرمًا.

وتلمسنا طريقنا في حذر بخطوات متئدة نحو "الكازينو" وفي تلك اللحظة اتضح لي جليًّا أنني أصبحت في مأزق عواقبه وخيمة، فأعملت التفكير الذي هداني إلى أن من الأفضل أن أذهب به إلى أحد الفنادق، ثم أمنحه بعض المال ليواجه به أجر الفندق عن تلك الليلة، وليستطيع أن يسافر إلى نيس في الصباح، لقد كان هذا كل ما جال بخاطري، ولا شيء غير هذا. وكانت العربات تتتابع في سرعة أمام "الكازينو"، فاستوقفت عربة ركبناها. وكان من الطبيعي أن يسأل الحوذي عن وجهتنا، وأخذتني الحيرة أي فندق أذكره للحوذي، فقد

كانت الأمور تسير ارتجالًا وفي سرعة دون تفكير وتدبر، جالت بخاطري فكرة، هي أن ذلك التعس الجالس إلى جانبي في إعياء وتهالك والذي لا يكاد يميز شيئًا، لا يهمه أن ينزل في فندق من فنادق الدرجة الأولى أو الفنادق الممتازة. كما لم أنتبه –لسذاجتي– أن من الجائز جدًّا أن يسيء بي الظن أحد حين يراني في هذا الوضع مع شاب، فأومأت إلى الحوذي أن يذهب بنا إلى فندق متواضع!

وما إن سمع الحوذي ذلك، حتى ألهب ظهر جواده في عنف وقسوة كي يستحثه السير في أقصى سرعة. وقد سرني ذلك كي لا أكون محط أنظار الفضوليين، كان كل ذلك يجري، والشاب الغريب قابع إلى جواري وقد لفه صمت مطبق، بينما عجلات العربة تحدث صوتًا يصم الأسماع، وماء المطر يرتطم بنوافذ العربة بشدة. وتراءت لي العربة وكأنها تابوت يضم جثة في طريقها إلى القبر، وبذلت جهدًا كبيرًا في أن أطرق حديثًا في أي موضوع أخفف به من وطأة هذا الموقف في ذلك الليل البهيم دون جدوى.

ومرت دقائق توقفت بعدها العربة، فترجلت وأعطيت الحوذي أجره في سخاء، وهبط الشاب في إثري وأغلق باب العربة وهو بين اليقظة والنعاس، ورأيت أننا أمام فندق لم تسبق لي معرفته، تعلو بابه مظلة من الزجاج وقتنا شر المطر المسترسل في فظاعة.

ولم يقو الشاب على التماسك فاستند إلى الحائط، والماء يقطر من

ثيابه المبللة ومن قبعته، وكأنما ينساب من صنبور مفتوح، وكأن الفتى قد أشرف على الغرق ثم أنقذ فلم يعد إلى رشده. وتجمع الماء في المكان الذي وقف فيه، بيد أن الفتى لم يحاول أن يسترد وعيه أو يطرد عنه ذلك التهالك أو ينفض الماء عن وجهه، بل ظل جامدًا كالتمثال. فأثار في نفسي الشعور بالإشفاق عليه، فقد كان محطمًا إلى درجة تدعو إلى الرثاء له. فكان من المحتم أن أقدم على عمل ينقذ الموقف، فأخرجت بعض النقود من حافظتي وقلت للشاب:

– معذرة إذا رجوتك أن تأخذ هذه المائة فرنك لتسدد منها أجر الفندق، ولكي تستطيع أن تسافر في الغد إلى نيس.

فرشقني بنظرات زائغة ممزوجة بالدهشة، بيد أنني استطردت أقول له وقد بدا عليه التردد:

– أرجو ألا يكون في ذلك أي حرج لك، فقد رأيت أنك خسرت جميع نقودك إذ كنت أراقبك في قاعة اللعب، وخفت أن يتملكك اليأس فتقدم على أمر فيه حماقة، وأرجو ألا يضيرك أن تتقبل هذه المعونة الضئيلة وأتوسل إليك ألا ترفضها.

وأدهشني أن أراه قد رد يدي في عنف لم أتوقعه منه، وقال لي بلهجة يمتزج فيها اليأس بعدم المبالاة:

– يبدو أنك سيدة نبيلة الخلق عريقة المنبت، احفظي نقودك فلم

يعد هناك متسع لأمل، ولا يهمني أن أنام الليلة أو لا أنام، وسأضع حدًّا لذلك غدًا.

بيد أنني اعترضت على رده اليائس وعلى رفضه قبول النقود، وألححت عليه أن يقبلها، وأوضحت له أن الغد كفيل بأن يغير رأيه ونظرته إلى الأمور، ورجوته أن يأوي إلى الفندق لكي ينال قسطا من النوم والراحة، ففي الليل عزاء للحزانى والمتعبين، وأنه عندما ينبلج فجر النهار ينبثق معه نور الأمل.

وأعدت الكرة محاولة أن أضع النقود في يده، فدفعني بعنف أقل في حدته عن المرة الأولى، وهو يقول في صوته كأنه حشرجة:

– لا فائدة ترجى، ولا مطمع في أمل. من الأفضل أن أنفذ ما حزمت عليه الرأي في مكان آخر حتى لا أتسبب في إزعاج صاحب الفندق بتلطيخ فندقه بالدم. ليس باستطاعة مائة فرنك أو حتى ألف فرنك أن تنقذني، بل على العكس من ذلك، ستقودني إلى "الكازينو" حيث أفقدها كما فقدت غيرها، فلماذا أرتد إلى تلك الهاوية بعد أن تجرعت علقمها حتى الثمالة؟!

من العسير جدًّا أن أستطيع التعبير عما أحدثته تلك الحشرجة الآسية من أثر في أعماقي. أرجو أن تقدر الظرف، أمامك شاب فيه حيوية وذكاء، عزم في إصرار على أن يضع حدًّا لحياته وآلامه، فإذا لم تطرق معه كل الحيل وإذا لم تستعمل معه المنطق المقنع، فإن هذه

الزهرة المتفتحة لن تلبث أن تذبل، وهذا الشباب المقبل سيذوي وينتهي إلى عدم، قبل أن ينقضي الليل، واستبد بي الأمر، وشملتني رغبة ملحة في أن أتغلب على إصراره الأحمق، فجذبته من ذراعه وهتفت به:

– أما لهذا التهريف من نهاية؟! بالله كف عما تردده، واتبع العقل والتمس الراحة بالفندق، وسأحضر إليك مع الصباح لكي أودعك عند سفرك، فليس من صالحك أن تبقى في هذا المكان،بل الأفضل أن تعود إلى موطنك في الغد، ولن يرتاح بالي حتى أراك وقد ركبت القطار، فمن الحماقة أن تقدر شبابك بحفنة من المال خسرتها فتقضي على ذلك الشباب من أجلها. إن هذا ضعف لا يحمل بالرجال، إنها نزوة من نزوات الحنق والقنوط، وسوف تقتنع في الغد بحكمة نصائحي.

ورأيته يجيب في مرارة قاسية وقد أثاره ترتيبي لأموره على هذا النحو وكأنه لا يعترف بالغد في قاموس حياته:

– تتكلمين عن الغد ولا يدري أحد ماذا سأكون في الغد؟ حتى أنا نفسي لا أعلم، وكم أتلهف إلى معرفة ذلك. أحرى بك أن تعودي من حيث أتيت أيتها الحمامة الوديعة التي هبطت على حياتي بعد فوات الأوان، ولا تكبدي نفسك متاعب لا جدوى تعود عليك منها، ولا تبعثري مالك سدى!

بيد أنني تشبثت بما عقدت عليه العزم، فقد استبد بي الحنق لعناده، فجذبت يده ودفعت بالورقة المالية فيها رغم أنفه قائلة:

– لا ترفض ولا تعترض، وادخل فورًا.

وتقدمت نحو الباب في عزم وحزم وضغطت زر الجرس، ثم التفت إليه بعد أن وضعته أمام الأمر الواقع وقلت له:

– لقد انتهى الأمر فليس هناك مجال للتردد، فلن يلبث الباب أن يفتح ويطل منه الحارس، فعليك أن تتبعه إلى الحجرة التي يرشدك إليها فتنام. وأقول لك صادقة إنني سأكون في انتظارك أمام الفندق في الساعة العاشرة صباحًا لأذهب بك إلى المحطة، ولا تفكر فيما يكون بعد ذلك، لأنني سأتولى تدبير كل شيء لكي تعود إلى موطنك، فأرجو ألا تستسلم للقلق أو التفكير في شيء، بل عليك أن تركن إلى الراحة والهدوء والنوم.

وفتح باب الفندق فعلًا، وأطل منه الحارس، وإذا بالفتى يصرخ فيَّ بلهجة حازمة وكأنه يأمرني:

– ادخلي معي!

وشعرت بأصابعه المتصلبة تطبق على معصمي في عنف فارتعت إلى درجة فقدت فيها السيطرة على الإدراك، ففقدت القدرة على التملص والإفلات من يده فقد تلاشت إرادتي. ولعله لا يخفى عليك

حرج مركزي في تلك اللحظة، إذ إنني شعرت بالخجل من الحارس الذي طال انتظاره، وخشيت أن أشتبك في أخذ ورد ونضال مع الفتى أمامه. وهكذا دون شعور وجدت نفسي في بهو الفندق، وعالجت الكلام ولكن صوتي غاص في حلقي، وكانت يد الفتى لا تزال قابضة على ذراعي في قوة شديدة، كأنه يخشى أن أفلت منه وأعود أدراجي. ثم أحسست وقد تلاشى وعيي أنه يقودني –دون إدراك أو قدرة على التفكير فيما يجب أن أتصرف– إلى السلم، وصعدناه، ثم طرق سمعي صوت مفتاح يتحرك.

وهكذا تطور الأمر في لمح البصر، وأدركت أنني في خلوة مع ذلك الشاب الذي لا تربطني به صلة ما، لا أعرفه ولا أعرف اسمه. وقد تم كل ذلك بشكل لا شعوري، أي دون رغبة مني أو إرادة، وأنا أقول كل ذلك في صدق وصراحة حتى يكون حكمك فيما بعد حكيمًا، لأنني في حيرة من أمر نفسي لا يقر لي قرار، وقد أوردت لك كيف سارت الأحداث تباعًا وكأنني كنت مسوقة إليها دون وعي أو شعور!".

الفصل الثامن

توقفت السيدة س عن الحديث، حينما أحست بصوتها يحتبس فلا يطاوعها، وسارت إلى النافذة وسرحت النظر خلال زجاجها، وظلت على تلك الحال بضع دقائق لا تنطق بكلمة، ولعلها لم تكن تنظر إلى شيء معين أو تتطلع إلى شيء إطلاقًا، وإنما أرادت أن تستريح. فقد رأيتها تدني جبهتها من الزجاج البارد حتى ألصقتها به، وحز في نفسي أن أتتبعها في حركاتها وقد راحت نهباً لانفعالات مسمومة. فظللت في مكاني ثابتًا صامتًا كالحجر، لا أحاول أن أسألها الاسترسال في سرد قصتها، أو حتى أحدث صوتًا ولو طفيفًا قد يزعجها. وبقيت هكذا حتى استدارت وعادت في خطوات بطيئة متئدة، فجلست أمامي وراحت تقول:

"إلى هنا أعتقد أنني سردت أبشع ما في قصتي من أحداث، وأرجو أن تنفي عن ذهنك –وقد أقسمت لك وعاهدتك على الصدق والصراحة– أنني قد دار بخلدي، حتى تلك اللحظة، أي تفكير في احتمال حدوث اتصال جنسي بين ذلك الشاب وبيني، ولكنني كنت مسلوبة الشعور والإرادة، حتى جنحت فجأة عن حياة الشرف والاستقامة، وترديت في هذا الموقف دون وعي أو إدراك وكأنه شرك وقعت فيه رغمًا عني. وأستطيع أن أؤكد لك وقد التزمت الصدق أنني

لم أكن مدفوعة برغبة ما، اللهم إلا إسداء العون لذلك التعس، فلم أستشعر رغبة شخصية لنفسي، ولذلك فقد انزلقت إلى هذا الوضع المخزي دون أن أتوقع ودون رغبة.

وأستميحك العذر في أن تعفيني من سرد ما حدث في تلك الغرفة. إنني لن أنسى كل بادرة وكل دقيقة من دقائق تلك الليلة الليلاء. لقد كنت في نضال وصراع مع شخص أهدف إلى إنقاذ حياته، وكان هذا كل همي، فقد كان الأمر مسألة حياة أو موت لهذا المنكود، كما كنت أحس في أعماقي أنه إذا رأى بصيصًا من أمل، فإنه سوف يتشبث به باستماتة، فكنت أنا ذلك الخيط من الأمل لذلك المسكين الذي يسرع إلى الموت ويسرع إليه الموت، فراح يتشبث بي في إصرار، ومن ناحيتي أنا فقد بذلت قصارى جهدي لكي أصل به إلى شاطئ السلامة.

وفي اعتقادي أن حدثًا كهذا لا يصادف الإنسان إلا مرة واحدة في حياته، وهو لا يصادف الكثير من الناس، فهو أمر نادر الوقوع جدًّا. وما دار بخلدي يومًا من الأيام أن المشرف على الهلاك تمنحه الطبيعة في تلك الفترة الانفعالية من حياته قوة خارقة واستماتة جامحة كي يتشبث بالحياة في اللحظات الأخيرة، وقد قضيت أعوامًا طوالاً بعيدة عن دنيا الشرور؛ لذا فقد عز على نفسي أن أرى الطبيعة تتجلى بشكل رائع حين تحشد في وقت واحد كل ما فيها من حرارة أو

برودة ومن نعيم أو تعاسة ومن حياة أو عدم.

لقد زخرت تلك الليلة بشتى الأحداث والأحاسيس، بنضال، وحديث، وشهوة، ورثاء، وعطف، وغضب، وحقد، وعبرات، وأسى، ونشوة، وتوسلات، حتى خيل إليّ أنها دهر من عمري، فقد كان لها أثر عميق لكلينا، هو وأنا، فإنها حين تلاشى آخر خيط من خيوطها، صار كل منا شخصًا مختلفًا عما كان، بروح وأحاسيس لا عهد له بها.

ومن العسير جدًّا، والكثير على نفسي، أن أتحدث عن دقائق أحداث تلك الليلة، وما بي رغبة كما لا أستطيع أن أميط اللثام عما جرى تفصيلًا. بيد أنني أرى أنه لزامًا عليّ أن أنوه عن تلك اللحظة العميقة الأثر في حياتي التي صحوت فيها في الصباح التالي، بعد نوم عميق، في ظلام لا عهد له بي من قبل. استيقظت وكأنني كنت تحت تأثير مخدر، ومضت فترة طويلة حتى استطعت أن أفتح عيني، فيطالعهما سقف حجرة لا عهد لي به في مكان مقبض غريب عني، لا أدري لماذا حط بي القدر فيه؟ وماذا جنيت في دنياي حتى احتواني بين جدرانه؟ وأردت أن أشعر نفسي بأنني في حلم من أحلام النوم العميق الذي كثيرًا ما تتخلله الرؤى المزعجة، ولكن خيوط نور الصباح التي كانت تنفذ خلال نوافذ الغرفة، وحركة الحياة في الطريق، كانت تتناهى إلى سمعي من العربات التي تسير وأجراس الترام وجلبة المارة. كل ذلك جعلني أدرك أنني لست في حلم بل في يقظة كل اليقظة. فرحت

أستجمع شتات أفكاري لأستعيد في ذهني ما حدث، وحانت مني لفتة إلى جانبي، ولا أستطيع أن أصف لك مبلغ ما اعتراني من ذعر، فقد كان هناك رجل غريب عني قد تمدد إلى جواري في الفراش، في وضع يا له من وضع شائن، فقد كان مجردًا عن معظم ثيابه!

يعجز لساني عن وصف ما اعتراني من هلع في شدة وعنف حتى إنني لم أتمالك نفسي، فتهالكت في الفراش ثانية، ثم فقدت القدرة على الحركة وكأن أوصالي قد أصابها شلل. بيد أنني لم أكن في حالة إغماء حقيقي فلم أفقد رشدي، ولكن –ويا للوعة– تجلى الواقع أمامي في وضوح وسرعة، ودون أن أدرك مغبة ما حدث– دون وعي مني أو رغبة أو إرادة– فتمنيت الموت لشعوري بجسامة الإثم ولاشمئزازي وخجلي، حين وجدت نفسي في هذا الوضع الشائن مع رجل غريب في فراش لا عهد لي به وفي فندق حقير ومكان يثير الشبهات. ولم يغب عن فكري حتى الآن أن أنفاسي في تلك اللحظة لهثت ثم احتبست، وأن قلبي قد اشتد خفقانه ثم كفت دقاته، وكأنما فقدت الإحساس بالحياة، ووصلت إلى نهايتها، وكل ما هنالك أن وعيي أدرك كل ما حدث دون أن يفقه له معنى.

ولا أستطيع أن أقدر كم من الوقت مضى عليّ وأنا في تلك الحال كأنني جثة مسجاة ولم أستطع تصور الواقع، فأغمضت عيني وابتهلت إلى الله وتوسلت من أعماقي ألا يكون هذا حقيقة واقعة. ولكن

مشاعري المرهفة أكدت اليقين، فلم يكن هناك منفذ لشك، فقد كانت حواسي متنبهة حتى إنني كنت أسمع أصواتًا في الحجرة المجاورة وخطوات في الردهة، وكلها تؤكد لي تنبه وعيي ويقظة حواسي.

إن الوقت الذي مضى على هذا الوضع الشائن لا يمكن أن يقاس بنظيره من دقائق الحياة الرتيبة العادية. وفجأة استولى عليّ فزع طاغ في البشاعة، فقد خفت أن يفيق ذلك الغريب من نومه، والذي أجهل اسمه حتى تلك اللحظة ويكلمني، فأعملت التفكير في سرعة، فهداني إلى أن ليس أمامي سوى منفذ واحد دون غيره، هو أن أسرع بارتداء ثيابي ثم أخرج وأنجو بنفسي قبل أن يستيقظ، حتى لا تقع عيناه عليّ أو يتحدث إليّ. فإنه يتحتم عليّ أن أنصرف لكي أعود إلى حياتي الأولى الطبيعية، أعود إلى الفندق الذي أقيم فيه فأرتب حالي ثم أغادر على الفور هذا المكان المشئومإلى غير رجعة، حتى لا ألتقي بهذا المخلوق شريكي في الخطيئة الذي يتمثل فيه إثمي.

وطغت عليّ هذه الفكرة التي رأيتها الأمل الوحيد في النجاة، حتى اكتسحت الجمود الشامل الذي اعتراني. فتسللت من الفراش في خفة وحذر شديدين، وارتديت ملابسي في حرص بالغ دون أن أحدث حركة أو صوتًا، وأنا في جزع خشية أن يستيقظ بين لحظة وأخرى، وبعد بضع دقائق كنت على أتم استعداد لمغادرة الغرفة وتحقيق فكرتي وأمنيتي. ولم يكن أمامي سوى القبعة التي كانت في طرف الفراش،

فسرت على أطراف أصابعي لكي آتي بها، ودفعني شعور غامض إلى أن أنظر إلى وجه ذلك الرجل، وكأنه صاعقة أصابت حياتي. وكان قصدي أن ألقي عليه نظرة عابرة واحدة، ولكن لدهشتي تبينت أن ذلك الغريب غريب في شكله عن الشخص الذي رأيته بالأمس، فقد تغيرت معالمه وتلاشت في صفحة وجهه تلك الأسارير المكفهرة المتوترة التي كان يطغى عليها الانفعال، وإذا أمامي وجه دقيق التقاطيع، وكأنه وجه فتى يافع عامر بأسارير الصبا وبالبراءة والطهارة والسذاجة. ولانت الشفتان المتقلصتان بالأمس، فافتر ثغره بابتسامة طفلية حالمة، وتناثرت على جبينه خصلات شعره الذهبي الأملس، وكانت أنفاسه تتردد في اطمئنان ورتابة وهدوء، وعادت الراحة إلى بدنه، وكأنه ليس الشاب الذي كان مقدمًا على الهلاك بالأمس.

ولعلك لم تنس ما سبق أن ذكرته لك في سياق حديثي أنه لم يصادفني في حياتي أن رأيت إمارات نهم وجشع عارمين وانفعال بالغ مثلما رأيتها تتجلى في عنف وصرامة على وجه ذلك الرجل أثناء المقامرة. وقد تلاشى كل ذلك، فطالعتني في وجهه وداعة وجوه الأطفال في رقة وطهر وسذاجة، حتى نومه الهادئ عبر عن صفاء واستسلام، وكأنه شخص أقبلت عليه السعادة فأخذ ينهل منها، فلم يعد يرزح تحت وطأة هم أو شقاء، بل كأنه لم يذق لهما طعمًا من قبل!

وما إن رأيت معالم النعيم تتجلى على ذلك الوجه النائم حتى

زايلني الخوف، ولم أستشعر القلق الذي كان يساوريني منذ لحظة، كما لم أحس بالخجل، بل غمرني شعور بالسعادة والنشوة، فبدأ يتضح أمامي ما كان مستغلقًا عليّ من أمر ذلك الحدث الجلل، وتملكني شعور بالفخر والزهو والاغتباط حين قدرت أنه لولا أن المقادير قد أرسلتني ورسمت لي دورًا في حياة ذلك الشاب الوسيم النائم في براءة الأطفال، لكان الآن كومة محطمة من اللحم وجثة غارقة في دمائها، واستحالت وسامة وجهه إلى بشاعة، وجحظت عيناه وفقدتا بريقهما وتألقهما. لقد تدخلت في الوقت المناسب، فحفظت عليه حياته وشبابه وأنقذته من موت محقق.

وأخذت أفكر وأتأمل بشعور الأم، وعينها الحانية التي لا يعتورها زيف أو مراءاة، ذلك المخلوق الممتلئ بنضارة الشباب الذي حفظت عليه حياته، فخالجني شعور بالمضاضة والألم أعجز عن وصفه، وتحول هذا الشعور وأنا في تلك الحجرة الدنسة في ذلك الفندق الوضيع الذي تهدر الفضيلة بين جدرانه وتستباح، انقلب هذا الشعور فجأة، ولفني إحساس بالوقار الذي يستشعره الإنسان وهو بين يدي ربه في الكنيسة، ولعلك لا تقرني إذ أقول ذلك، أو لعل ما أقوله يبعث السخرية في نفسك، ولكني أحسست حقًّا وكأن معجزة تمت على يدي، فغمرني إحساس بالقداسة والطهارة!

وكأن المقادير قد وقفت لي بالمرصاد، فلم يكفني أبشع أمر حدث

لي في حياتي، فقد تلت ذلك لحظة بالغة في بشاعتها ووقعها على نفسي، وهي ما كنت أتوجس من أن تحين، ولا أستطيع أن أذكر كيف قدر لهذه اللحظة أن تأتي؟ وهل بدرت مني حركة عفوًا أو كلمة دون وعي تسببت في ذلك؟ فقد رأيته يفتح عينيه على غير توقع، فتراجعت مذعورة جزعة. بيد أنه راح يدور بعينيه في عجب ودهشة، كما حدث لي حين استيقظت، ولاح كأنه كان يعاني كابوساً مزعجاً، ثم أجال النظر في كافة أرجاء الغرفة في عناء وجهد كأنه يبحث عن شيء أو يحاول أن يتذكر أمرًا،إلى أن وقعت عيناه عليّ، فأخذ ينظر إليّ في استغراب ودهشة. بيد أنني أعددت نفسي للموقف، فتمالكت نفسي واستعدت رباطة جأشي –قبل أن أترك له الفرصة لمخاطبتي أو استجماع شتات أفكاره– فالظرف يحتم عليّ ألا أدعه يتكلم أو يسأل أو يتبسط في ملاطفة. فمن الضروري ألا يعاد ما حدث في تلك الليلة، أو يذكر عنه تعليق أو إيضاح، أو أن يكون مادة لمناقشة أو حديث، فبادرته بقولي:

– حان الوقت لأن أنصرف، ويتحتم عليّ أن أفعل ذلك، وعليك أن تتخلف أنت لترتدي ثيابك، وعند الظهيرة سأكون في انتظارك أمام "الكازينو" لكي أدبر ما بقي من أمرك.

وخرجت فورًا من الغرفة دون أن أترك له فرصة ينطق فيها بلفظ أو عبارة، ولكي أبتعد عن تلك الغرفة فلا تطرفها عيني لحظة أخرى.

واندفعت في سيري لا ألوي على شيء ولا أتلفت يمنة أو يسرة، وغادرت ذلك الفندق الذي لاأعرفه كما لا أعرف الشاب الغريب عني الذي قضيت معه ليلة في فراش واحد بين جدران هذا الفندق!

الفصل التاسع

بلغ التأثر بالسيدة مداه، فتوقفت عن الكلام لتسترد أنفاسها اللاهثة. وبعد فترة زايلها كل أثر لألم أو انفعال، فاستأنفت حديثها، وقد شبهتها بسائر عن طريق وعر ينهك السير فيه قواه، حتى إذا صادف بقعة منبسطة راح يستريح من وعثاء السير كي يستأنف السير في نشاط. وهكذا استأنفت الحديث وقد زايلها معظم انفعالها.

أسرعت الخطى إلى الفندق الذي أقيم فيه سائرة من شارع إلى شارع، وقد انجابت الغيوم عن السماء ولفحني نسيم الصباح العليل، فزايلتني جميع مشاعر الأسى. ولعلك تذكر جيداً أنني قلت لك من قبل إنني زهدت مباهج الحياة وزخرفها منذ وفاة زوجي، وإنه أصبح في مقدور ولديّ أن يعتمدا على نفسيهما، وأنهما ليسا بحاجة إليّ، فلم يكن ثمة ما يعنيني. وهكذا تحولت حياتي إلى شيء تافه لأنه لم يعد لي هدف معين، ولذلك وجدت نفسي، دون ترتيب أو تمهيد، مدفوعة إلى عمل ما. فلما ألقت المقادير في طريقي إنساناً، أنقذته من هلاك محقق، وبذلت في ذلك قصارى جهدي، ولم يبق أمامي إلا خطوة واحدة أتمها فيكتمل عملي.

ووصلت إلى الفندق الذي أقيم فيه، فهالني أن أرى الحارس يحملق

في دهشة بالغة، إذ يراني أحضر في منتصف الساعة التاسعة صباحاً. بيد أن تصرفه هذا لم يثر الحرج في نفسي، إذ كانت قد زايلتني أحاسيس الخجل والأسى التي خالجتني من قبل، وشعرت بغتة بحب الحياة والتعلق بها. شعرت بالزهو، وبأنني كائن له كيان، وأنني عضو نافع في المجتمع، فزاد هذا الشعور من حيويتي. وإذ ضمتني غرفتي، بادرت إلى خلع ثوب الحداد عني عن غير قصد، فارتديت ثوباً زاهي الألوان، وغادرت الفندق وحثثت السير إلى المحطة لأستعلم عن مواعيد القطارات، يحدوني عزم وحزم. ثم قضيت بعض الحاجات، ولم يعد يشغل ذهني سوى الاطمئنان إلى أن ذلك الشاب الذي ألقت به المقادير في طريقي قد عدل عن نواياه وآثر الحياة وعاد سالماً إلى بلده!

وأعوزتني الجرأة والشجاعة والإقدام كي أستطيع ملاقاته ثانية، فقد تمت أحداث الليلة السابقة تحت جنح الظلام، ذلك الستار الذي يضم الكثير من المخازي والآثام. وقد كنا وكأننا شخصان دُفعا في اليم فاصطدما على غير معرفة، بل إنني ما فكرت في أن هذا الغريب سيعرفني وسيكون له معي شأن. وعلى هذا الأساس، فإنني أعتبر أن ما حدث بالأمس كان مصادفة ليس إلا، فلم يكن هناك اتفاق أو قواعد أو حتى سابق معرفة. إذن فهي نزوة خبيثة طارئة ونشوة عابرة استبدت بشخصين تائهين في بيداء الحياة، بيد أنه في اليوم التالي يتحتم عليّ أن أتسم أمامه بالوقار، ما دام لا مفر من ملاقاته، حيث سيرى وجهي في وضح النهار الذي لا يشفق ولا يحجب شيئاً.

ومن عجب أن أجد الأمور تسير في سلاسة وسهولة ما كنت أتوقعها، فإنني حين بلغت "الكازينو" في الوقت الذي حددته له، رأيت شاباً ينهض عن مقعده ويسرع نحوي. وإذ كان قد فوجئ برؤيتي وكأنه لم يكن ينتظر أو يتوقع ذلك، فقد ندت عنه حركات وارتسمت على أساريره مشاعر طفلية ساذجة مفعمة بالسعادة، فكاد يطير فرحاً، تأتلق عيناه في غبطة وتقدير واحترام وعرفان بالجميل. ثم لم يلبث أن أطرق إلى الأرض حين طالع في عيني ذلك الاضطراب الذي اعتراني. أطرق في خضوع ووداعة، أجل! إنه شعور الاعتراف بالجميل الذي أسديته له. أقول في حركات طفيلة ساذجة؛ لأننا نادراً ما نجد ذلك في الرجال لأنهم لا يستطيعون التعبير عن تقديرهم للجميل، فهم لا يتكلمون ويعتريهم الخجل ويرتبكون فتختفي مشاعرهم. أما هذا الشاب، وقد أضفى عليه المولى موهبة التعبير عن كافة المشاعر والانفعالات، فقد عبرت حركاته ومشاعره أدق وأوضح تعبير، فكان تقديره لصنيعي، وعرفانه بجميلي، قوياً دافقاً من قمة رأسه إلى أخمص قدميه.

وفي لمح خاطف، وبرشاقة بالغة الروعة، انحنى في خشوع برأسه الدقيق الجميل، ثم مال على يدي وأخذ يقبل أناملي ويلمسها بشفتيه في لطف ورقة، وظل على ذلك دقيقة ثم تراجع قليلاً واستفسر عن صحتي وهو يرمقني في عطف وحنان. واتسمت كلماته بالأدب الجم، فزايلني القلق وزال عني الخوف وشعرت بالطمأنينة تسري في بدني. وكأنما سرى شعوري بالبهجة إلى الكون الذي يحيط بي فأضفى عليه بهاء وإشراقاً،

فإذا صفحة البحر قد انبسطت في هدوء بعد ثورة وكأن البحر يشاركنا السلام والأمان. وطالعتنا تلك البؤرة الشيطانية "الكازينو" شامخاً نحو السماء، ورأينا الكشك الذي لجأنا إليه لنحتمي بمظلته من المطر المنهمر قد زخر بالزهور المتنوعة الألوان، وقد تناثرت دون تنسيق مع باقات من الورد والفروع الخضراء، تقوم بالبيع فيه فتاة كأنها إحدى الزهرات التي تبيعها.

وخطرت لي فكرة راقت لي، وهي أن أدعو الشاب إلى الغداء في مطعم قريب صغير. وهناك راح يروي لي قصته المفجعة الآسية، فأكدت ما خامرني نحوه حين كان جالساً إلى مائدة اللعب ويداه ترتجفان في انفعال طاغ.

لقد كان عظيم المنبت سليل إحدى الأسر الراسخة في العراقة والمركز المرموق في بولندا، وكان وشيك العمل في السلك السياسي لأنه اجتاز دراسته العالية بتفوق عظيم في جامعة "فيينا"، فقد كان الأول على أقرانه في الامتحان الذي عقد منذ شهر. يقيم عند عم له كان ضابطاً في قيادة الجيش، ورأى عمه أن يكرمه وأن يحتفل بتفوقه ونجاحه فاصطحبه معه إلى حديقة للملاهي وسباق الخيل حيث واتى الحظ عمه فربح مرة ومرتين وثلاث مرات، وأصبح في حوزتهما مبلغ ضخم من النقود، وتناولا طعام العشاء في مطعم فاخر.

وتلقى من والده في اليوم التالي مبلغاً من المال يعادل مرتب شهر

للعمل الدبلوماسي الذي ينتظره مكافأة له على نجاحه وتقديراً لتفوقه. وكان من الطبيعي أن يعتبر أن مبلغاًكهذا يعد ثروة لها قيمتها وشأنها منذ يومين، قبل أن يذهب إلى ساحة المراهنة على سباق الخيل. أما بعد أن رأى الأرباح تتدفق بسهولة عن طريق المقامرة، فقد تضاءل المبالغ في نظره واعتبره تافهًا، وحفزته تلك الخواطر، فلم يكد يتناول غداءه في اليوم التالي حتى أسرع إلى ميدان السباق وراح يراهن في اندفاع وتهور. وحالفه الحظ في هذه المرة، وإن كان ذلك من بوادر سوء حظه وترديه في المقامرة بعد ذلك، فخرج من ميدان السباق وقد ربح أضعاف ما كان معه!

ومنذ تلك اللحظة سرى داء المقامرة في دمه، واشتدت لهفته عليها، واستبد به سعارها على أي وجه من وجوهها. فتارة في ميادين السباق، وطورًا في المقاهي العامة، وأحياناً في أندية القمار. واستشرى فيه هذا الداء الوبيل حتى استحوذ على وقته وأعصابه وموارده وكيانه، ففقد القدرة على التفكير السليم والعمل الحكيم وحرم من النوم الناعم الهادئ، وعجز عن كبح جماحه ورد نفسه عن تلك الغواية. وحدث ذات مرة أن عاد إلى بيته من أحد أندية القمار بعد أن خسر كل ما يملك وأصبح مفلساً تماماً. وفيما هو يخلع ثيابه، عثر على ورقة مالية في أحد الجيوب الداخلية، فاستبدت به شهوة المقامرة ولم يقو على كبحها. فارتدى ثيابه من جديد، وانطلق في الشوارع، وقادته قدماه إلى مقهى التقى فيه بأحد المقامرين فراح يلاعبه وظل على ذلك حتى انبلج الفجر.

وكان من الطبيعي –شأن جميع المقامرين– أن يستدين من المرابين، وأن تتضاعف ديونه وتتراكم. فتطوعت أخته المتزوجة بمساعدته، فسددت ديونه التي كان المرابون يتهافتون على إقراضه إياها لعلمهم أنه وارث كبير في أسرة عريقة. والمقامرة غريبة الأطوار يبتسم فيها الحظ ردحاً من الزمن، ثم لا يلبث النحس أن يحل ويأبى التخلي. وكان هذا شأن الشاب، فقد حالفه الحظ أولاً حتى ظن أن الثروة ميسورة عن هذا الطريق، ولكن الحظ لم يلبث أن ولى عنه، فتضاعفت خسائره وتراكمت ديونه وعجز عن سدادها. وتورط في تحرير صكوك يعلم جيداً وسلفاً أن لا سبيل إلى الوفاء بها، ويعطي وعوداً لا يستطيع أن يفي بها. وكان يندفع في المقامرة أملاً في الحصول على كسب وفير ينقذ به نفسه ويخرج من الهوة التي تردى فيها.

وإذ أضحى لا يقتني شيئًا ذا قيمة لأنه كان قد رهن ساعته ليقامر بالمبلغ الذي رهنها به، فقد انزلق إلى حماقة شنيعة بالإقدام على سرقة حليتين ثمينتين مرصعتين بالماس من زوجة عمه، كانت تعتز بهما وتحفظهما في مكان أمين في دولابها ولا تتزين بهما إلا في المناسبات الكبرى وحفلات علية القوم. ورهن إحدى الحليتين على مبلغ كبير، قامر به فربح أربعة أضعاف المبلغ في ليلته. وكان أحرى به أن ينسحب قانعاً بما أصاب، ولكنه جازف بالمبلغ وبالربح الذي ناله فخسر الجميع وأضحى خاوي الوفاض!

وحتى ذلك الوقت لم يكن أمر السرقة قد عرف واكتشف، فبادر إلى رهن القطعة الثانية وتوجه لتوه إلى مونت كارلو لعله يجد الحظ في "الروليت" فيحصل على الثروة التي يمني نفسه بها. ولكن الحظ لا يعاند، وانتهى به الأمر في اليوم الذي وصل فيه إلى أن يبيع ثيابه ثم الحقيبة التي كانت تضمها، ثم المظلة. ولم يبق لديه سوى مسدسه وبه رصاصات أربع، وصليب من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة كانت قد أهدته له "أشبينته" الأميرة عند تعميده. وكان يعتز بهذا الصليب ويحرص عليه حرصاً شديداً، ولكنه أمام النزوة الطاغية، اضطر أن يبيعه بعد الظهر بخمسين فرنكاً. لا أملاً في ربح أو خسارة بل لكي يتذوق لآخر مرة تلك النشوة الجامحة التي يستشعرها المقامر، لأنه كان في هذه المرة يقامر على حياته أو على موته!

سرد الشاب لي قصته وقد تألق بجاذبية خلابة وفتنة أضفت الحيوية على كل ما حوله، وكنت أصغي إليه وقد شملني التأثر والاضطراب، فقد أخذتني قصته فرثيت له. بيد أنه لم يدر بخلدي مطلقاً أن جلوسي مع شخص –لا يعدو أن يعتبر لصاً رغم أي اعتبار– من الأمور المخجلة. ولو أن شخصاً ذكر لي قبل ذلك، بيوم واحد، أنني وأنا السيدة ذات الماضي الناصع النقاء والتي يحترمها المجتمع، قد تجمعني جلسة يوماً من الأيام في غير تحفظ أو كلفة مع شاب غريب عني في مثل عمر أحد أبنائي، وأن هذا الشاب قد أقدم على سرقة فهو لص، لو ذكر لي أحد أن هذا قد يصادفني في حياتي لاتهمته بالخبل والهذيان!

وأصدقك القول أنني رغم ما سمعته من قصة الشاب، فإنني لم أشعر نحوه باشمئزاز أو استنكار. وقد راح يسرد الحوادث في سذاجة دون استحياء، كأنه يروي أموراً لا تمت للخلق بصلة، وأنها ليست من الجرائم المخجلة. بيد أن سيدة مثلي بوغتت في الليلة السابقة بأحداث فظيعة لم تكن تتوقعها تترى تباعاً، من الصعب عليها أن تؤمن بالاستحالة؛ لأن تجارب تلك الساعات التاريخية التي تتصل بغموض الحياة وحقائقها تفوق كثيراً كل ما مر بي في أعوامي الأربعين التي انقضت في رتابة واتزان.

ناحية واحدة في اعترافاته أشاعت الخوف في نفسي، ذلك البريق المتألق الذي كان تطفح به عيناه فتتقلص معه أسارير وجهه، فكان حديثه عن اللعب ومدى تعلقه به يفصح في جلاء عن مشاعر البهجة والأسى اللذين يستشعرهما في أعماقه. وكانت يداه تترجمان بحركتهما عن تلك المشاعر، فتارة تكونان وديعتين هادئتين وتارة أخرى تنقلبان إلى أداتين جامحتين تتحركان في عصبية وحشية كما كانتا أثناء اللعب. وقد ركزت اهتمامي عليهما وهو يروي قصته، فهالني أن أراهما ترتعشان وتتقلصان وتنبسطان ثم تقبض إحداهما على الأخرى في عنف وتشنج. وأعجب من ذلك أنهما –حين تكلم عن سرقة الحليتين– ترجمتا بحركاتهما كيف امتدت إليه فقبضت على الحليتين، ثم دستهما في خفة بين ثنايا ملابسه. فظهر لي جلياً أن ليس باستطاعته أن يكتم أو يخفي انفعالاته، بل إن تلك الانفعالات كانت جزءاً لا يتجزأ من طبيعته وكيانه، وهالني وأفزعني أكثر من ذلك كله أن تكون لهذا الشاب الوسيم الوديع روح

شريرة ونزعة شيطانية.

ورأيت أنه ينبغي أن أسلك طريق الملاطفة والمودة مع ذلك الشاب الذي ألقت به المقادير في طريقي وفرضت عليّ واجب إنقاذه، لكي أقنعه بأن يرحل عن تلك البقعة الموبوءة بالمقامرة فوراً لما يترتب على البقاء فيها من عواقب وخيمة، وأن من المحتم عليه أن يرحل تواً إلى بلده وعائلته قبل افتضاح أمر السرقة لأن في ذلك القضاء على مستقبله قضاء مبرماً. ووعدته بأنني سأمنحه المال اللازم لسفره ولاسترداد الحليتين، على أن يوافق هو ويتعهد بالرحيل فوراً دون إبطاء أو تأجيل، وأن يعاهد الله أن يطرح المقامرة جانباً، فلا يمارس أي نوع من أنواعها بعد ذلك.

وسيظل عالقاً في ذهني عرفانه بجميلي الذي بدا طبيعياً، ثم أخذ يظهر تدريجياً على وجه ذلك الشاب المحطم. ولا أزال أذكر ذلك الاهتمام الذي بدا منه وأنا أنهي إليه استعدادي لمساعدته، فقد رأيته يمسك بيدي فجأة بين راحتيه، بشكل لن أنساه ما حييت، وبحركة فيها خشوع وتقدير لي، ورأيت الدموع تترقرق في مقلتيه الصافيتين صفاء الغدير، وانتابته رعشة عصبية تحت تأثير الشعور بالسعادة.

وكم رغبت أكثر من مرة أن أصور لك ما كانت تفصح عنه أساريره من تعبيرات وأن أصف لك تصرفاته. بيد أنه ليس في استطاعتي الآن أن أعبر لك عن مدى السعادة التي غمرته في شكل

بريق متألق، سعادة ليس لها نظير كتلك التي يحس بها الإنسان خلال حلم جميل، ولماذا لا أكون صريحة؟ إنني لم أستطع أن أصمد أمام روعة ذلك المنظر. حقاً إن الاعتراف بالجميل يشيع البهجة والسعادة في النفس، فهو تعبير كالطيف في خفته، والوداعة تغمر النفس بالإشراق؛ لذلك كان هذا الشعور شيئاً جديداً مستطاباً على سيدة متزنة مثلي، فلفني هذا الشعور بفيض من الراحة والطمأنينة، وأدركت أن نفس الشاب قد تفتحت لي بعد أن كان قانطاً محطماً.

أمعنا النظر في البحر المنبسط، ونحن نغادر المطعم، فرأيناه رائعاً في تألق وقد انعكست عليه زرقة السماء وحلقت فوقه الطيور. حقاً ما أروع جمال الطبيعة! إنها تشيع في النفس شعوراً بالبهجة، ولكن "الريفييرا"، رغم بهائها وروعتها، فإن جمالها من نوع آخر لا تستسيغه العين كالحسناء المبتذلة تجذب الأنظار وتخلب الأفئدة بظاهر جمالها ولكنها في الواقع فقدت قيمتها الإنسانية وجوهرها الثمين. بيد أن جمالها قد يبعث الحرارة في النفس في بعض الأحيان، فيأخذ بطلائه البراق ويؤثر بهاؤه الزائف في أحاسيسك ومشاعرك.

الفصل العاشر

كان يومنا زاخراً بشتى الأحاسيس، وكان بمثابة اليوم الذي يعقب العاصفة. وقد أزال المطر غبار الشوارع فبدت لامعة، واصطبغت السماء بلون وردي يبعث في النفس شجي محبباً، وظهرت الطبيعة في أبهى حللها وبدت الجبال شامخة كأنما قامت لتقينا عوادي الزمن. وبالجملة كانت الطبيعة مبعث إغراء لا سبيل إلى مقاومته، فطغى ذلك على كل مشاعري وقلت للشاب:

– بودي أن نستقل عربة تنطلق بنا في نزهة على الشاطئ!

– كم يسعدني ذلك.

وأدركت أن سحر الطبيعة قد أثر فيه فبدل من شأنه؛ لأن عينيه لم تطالعا منذ حضوره سوى قاعة اللعب بموائدها اللعينة وجوها المقبض المشبع برائحة الطباق والعرق، والذي تختلط فيه أصوات المقامرين، الرابحين منهم والخاسرين. لقد كان ذلك هو الحيز الذي ضمه والدائرة التي لم يتعداها، فلم يكن لديه متسع من الوقت أو استعداد للتفكير في سحر الطبيعة وجمالها الأخاذ.

أما الآن فقد فتحت له الطبيعة قلبها، فاستقبلها بالغبطة والترحاب كالطفل الذي يرتمي في أحضان أمه الحنون!

وأخذت العربة تتهادى بنا، إذ لم يكن هناك زحام يعكر صفو سيرها في ذلك الشارع الجميل. ومررنا بكثير من البيوت الصغيرة الجميلة وبجموع من الناس في غدو ورواح. فأيقظ مرأى تلك البيوت في نفوسنا مشاعرنا وإعجابنا بجمال الحياة بين أحضان الطبيعة في هناء وسلام بعيدين عن صخب الناس.

هل يمكن أن يكون هناك شعور بالسعادة أمتع مما استشعرته في تلك الساعة؟! حيث كان إلى جانبي شاب وديع وسيم كان مشرفاً على الموت بالأمس، فأضفت عليه الطبيعة من قوتها السحرية وعادت إليه نضارته. فبدا يافعاً أصغر من سنه تفيض عيناه بالبشر والحبور والتقدير والاحترام في الوقت ذاته للجالسة إلى جواره، حتى لقد زهوت حقاً بتبجيله إياي، كما كان مثالاً رائعاً لليقظة والحرص على أنه كان يقفز في سرعة ورشاقة ليدفع العربة إذا رأى تعثراً في سيرها. وكلما مررت بزهرة وذكرت اسمها أو أطريت جمالها، بادر إلى اقتطافها وتقديمها لي في أدب جم ولطف بالغ. وبلغ من رقة قلبه وشفافيته أن رأى ضفدعة كادت تدوسها العربة، فهبط وأمسكها ونأى بها عن الهلاك. وأجمل من ذلك أيضاً أنه راح يروي طوال الطريق كثيراً من الأقاصيص الطريفة في دماثة ولباقة وأدب ليسليني.وخيل إليّ أنه جعل ضحكاته ستاراً يخفي وراءه إحساسات أخرى كانت تعتمل في أعماقه، فقد رأيته لا يتمالك نفسه أحياناً فيغني أو يقدم على تصرفات صبيانية تبعث على الضحك، بيد أنها كلها كانت تنم عن بهجة وانشراح

وانطلاق.

وحدث أن رفع قبعته فجأة والعربة تسير بنا على مهل، فأخذتني الدهشة وتساءلت ترى من ذا الذي يحييه وهو غريب في هذا المكان، واستفسرته عمن يقصد بتحيته فاعتراه خجل طفلي، واصطبغت وجنتاه بحمرة وردية، وأجابني في وقار بأننا مررنا في سيرنا بإحدى الكنائس، وأن هذا من تقاليد أهل بولندا، درجوا عليها شأن كل البلاد الكاثوليكية المذهب، فقد درجوا على تحية بيوت الله برفع قبعاتهم عن رءوسهم. فشعرت بالخشية أمام ذلك التقديس الذي أبداه، وقفزت إلى ذهني ذكرى الصليب الذي سبق أن حدثني عنه. وسألته عما إذا كان متمسكاً بأهداب الدين، فعاد الاحمرار يضرج وجهه وقال بلهجة يشوبها الخجل بأنه يتوق إلى تناول القربان المقدس. وعندئذ أهبت بسائق العربة أن يتوقف، وبادرت فغادرت العربة، وتبعني وكأنه لا يدري ماذا سأفعل؟ ثم سألني في دهشة:

– إلى أين يا سيدتي؟

– ستعرف.. سر معي.

ويممت صوب الكنيسة، وكانت صغيرة شأن جميع كنائس الريف، شيدت من الطوب وطليت جدرانها الداخلية بالجير، فبدت قاتمة وكأنها أثرية. وكان بابها مفتوحاً يتسلل منه ضوء أصفر اللون وسط الظلام، ويتوج المذبح بهالة زرقاء باهتة، ورأيت شمعتين يتراقص ضوءهما خلال

العتمة المشبعة برائحة البخور التي عمت المكان.ودلفنا من باب الكنيسة، فأحنى رأسه قليلاً ورفع قبعته، ثم غمس يده في الماء المقدس ورسم إشارة الصليب وركع نصف ركعة. وأمسكت بذراعه حين انتصب قائماً، وقلت له وكأنني ألقي إليه أمراً:

– هيا إلى المذبح أو إلى أحد هذه الرسوم المقدسة وردد العهد والقسم اللذين سأتلوهما عليك.

فنظر إليّ مذهولاً وقد لفته الرهبة، وإذ أدرك ما أعني تقدم نحو فجوة قام فيها تمثال لأحد القديسين، فكرر مراسم التقديس بأن رسم إشارة الصليب وركع في خشوع المتعبد، فشملتني رجفة لفرط التأثر وقلت له:

– ردد ما سأقوله واحلف اليمين.

– أقسم يا سيدتي.

فتلوت التالي:

– أعاهد الله أنني لم أقدم على ممارسة القمار في أية صورة من صوره أياً كان نوعه، ولن أزج بحياتي وسمعتي وشرفي في خضم هذه النزوة وهذا البلاء.

وردد ذلك العهد، ويظهر أنه ردده من أعماقه لا بفمه فقط، لأنني رأيته ينتفض كريشة في مهب الريح وقد أخذته رهبة حقيقية. ردد

الكلمات بصوت واضح النبرات تردد صداه في السكون المحيط بنا. وبعد ذلك خيم على المكان صمت شامل، حتى لقد تناهى إلى أسماعنا حفيف أوراق الأشجار التي كان الهواء يداعبها خارج الكنيسة. ثم رأيته ينحني فجأة في خشوع بالغ كأنه خاطئ أثقلته الذنوب فناء بها، وراح يتكلم بسرعة بلغته البولندية التي أجهلها في نوبة من الورع والتقوى وصدق العزيمة لم أكن أعهدها فيه. وأغلب الظن أنه كان يردد صلاة حارة من أعماقه، ربما صلاة شكر وندم وتوبة، إذ كان بين الحين والحين يحني رأسه في خشوع على ستار الهيكل وهو يردد صلاته في حرارة دافقة، واسترعت انتباهي كلمة معينة كان يرددها في حماس وعزم.

لقد كانت صلاة حارة بالغة الورع والتقى، إذ كانت يداه تتشبثان بستار الهيكل في استرحام وضراعة، وينتفض كمن أصابته حمى راعشة أو كمن يقاوم صراعاً في أعماقه، وراح ينتصب معتدلاً حينا ثم يعود إلى الركوع في خشوع عميق وكأنه قد سبح في عالم آخر غير هذا العالم، عالم نقي خال من الخطايا والآثام أو كأنه قد تحول إلى قديس.

وطال مكثه على تلك الحال إلى أن نهض في النهاية على مهل ورسم إشارة الصليب، وراح يتلفت حوله وقد علا وجهه شحوب شديد وارتجفت ركبتاه كأنه شخص متهالك أو مقبل على إغماء. وما إن رآني حتى تألقت عيناه بوميض لامع، وشاعت في وجهه ابتسامة

عذبة صافية زادت أساريره بهاء، ثم انحنى أمامي انحناء كبيراً، وتناول يدي في وقار ولثمهما بخفة في تقدير ثم قال:

– إنك رسول السلام، بعثك الله إليّ فشكرته على نعمائه.

وارتج عليّ الكلام، ولم أدر بماذا أجيب؟ بيد أنني تمنيت لو أن القيثار قد ردد أنغامه، ذلك لأنني أدركت وأيقنت بأنني نجحت في مهمتي، وحفظت على هذا الشاب حياته إلى الأبد.

وغادرنا الكنيسة فاستقبلنا إشراق الطبيعة في ذلك اليوم الذي ازدهى بالصفاء والنور وتجلى فيه الجمال في أبهى صورة. ومرت بنا ساعتان والعربة تتهادى بنا، وكأنها هودج يسير الهويني حتى بلغنا قمة المرتفع، فكان يطالعنا بين الحين والحين منظر بهيج يأخذ بمجامع الألباب. بيد أننا ظللنا صامتين لا ينبس أحدنا بكلمة، وكأننا أشفقنا من أن يعكر الكلام ذلك الصفاء الذي شملنا في الكنيسة. وكنت أتعمد أن أشيح بوجهي في حرج إذا تلاقت عيوننا، وقد طغى نجاحي في مهمتي التي تكاد تكون معجزة على مشاعري!

وانتهى بنا المطاف، وعدنا إلى حيث أتينا، إلى مونت كارلو وكانت الساعة قد بلغت الخامسة بعد الظهر، وكان لدى موعد هام مع بعض أفراد أسرتي لا أستطيع التخلف عنه. على أنني كنت في أمس الحاجة إلى الراحة، والاعتكاف لأهدئ من حدة عواطفي المضطربة المشتعلة في نفسي في تلك الفترة. فقد طغى عليّ شعور دافق بالسعادة،

فأحسست بالحاجة لأن أستمتع بتلك النشوة التي شملت كل ذرة في كياني، والتي لم أتذوقها من قبل. فرجوت الشاب –حتى لا أنتقص من رعايتي له– أن يذهب معي إلى الفندق لبضع دقائق، حيث نفحته في حجرتي النقود اللازمة لسفره ولفك رهن الحليتين المسروقتين، على أن يتوجه بعد ذلك من فوره إلى المحطة ليحصل على تذكرة السفر، وفي هذه الأثناء أكون أنا قد وفيت بموعدي. وإذ يفرغ كل منا في ذلك، نعود فنتقابل في المحطة في الساعة السابعة حيث نقضي معاً الدقائق الباقية على موعد قيام القطار ورحيله إلى موطنه. بيد أنه راعني أن أرى الاصفرار يعلو شفتيه وأنا أقدم له النقود، وهتف بصوت مبحوح وكأنه منبعث من هوة سحيقة:

– لا.. لا.. لا أريد نقوداً!

نطق بذلك في ارتباك وتلعثم، بينما أخذت أصابعه ترتجف وتتراجع إلى الخلف في اضطراب وانفعال شديدين وهو يردد:

– لا أريد نقوداً، لا أستطيع أن أراها.

وراح يكرر هذه العبارة بصورة آلية وقد استولى عليه شعور بالخوف الممزوج بالاشمئزاز. فبذلت جهداً في تهدئة روعه، متعللة بأن ما أقدمه له لا يعدو أن يكون قرضاً يسدده في أي وقت يشاء، ولا بأس من أن يكتب إيصالاً به حتى لا يكون في الأمر حرج. فتمتم قائلاً:

– إيصال.. نعم.. لا بأس من تحرير إيصال.

تفوه بهذه الكلمات وهو يغض النظر ويشيح بوجهه قليلاً، ثم أمسك الأوراق المالية وضغطها بيده ودسها في جيبه دون أن يلقي عليها نظرة، وأخرج ورقة صغيرة سطر عليها بضع كلمات في سرعة. وبعد ذلك رفع رأسه فإذا جبينه يقطر بالعرق كما لو كان يعاني صراعاً داخلياً عنيفاً ويحاول الانطلاق جاهداً، ورأيته يرتعش حين تناولت الورقة من يده. وفجأة جثا، فتراجعت إلى الوراء في هلع، ووجدته يقبل طرف ثوبي. فأُخذت بذلك المنظر الرائع، وهالني انفعاله الشديد فبعث الرجفة في أوصالي، ثم اعترتني قشعريرة حادة ولفني الاضطراب، فتمتمت قائلة:

– لا يسعني إلا أن أشكر لك هذا التقدير والعرفان بالجميل، معذرة يجب أن نفترق الآن، على أن نتقابل على رصيف المحطة في الساعة السابعة، حيث نتبادل الوداع.

وتطلع إليّ بنظرة زاخرة بشتى المعاني، الحنان والتقدير وعرفان الجميل، وقد تألقت عيناه ببريق أخاذ، فجال بخاطري أنه يريد أن يتكلم، وخيل إليّ أنه يرغب في أن يقترب مني، بيد أنه انحنى فجأة انحناءة كبيرة، ثم غادرني دون أن يتفوه بكلمة.

الفصل الحادي عشر

عند هذا الحد لاذت بالصمت وقد توقفت عن الاسترسال في حديثها، ثم نهضت وسارت صوب النافذة، فسرحت النظر إلى الخارج. وظلت على تلك الحال وقتاً طويلاً دون أن تند عنها حركة ما، وبعد حين لاحظت أن رجفة اعترتها في الوقت الذي كانت توليني فيه ظهرها. ورأيتها تستدير فجأة وتعود نحوي في تؤدة ورزانة، وقد بدرت من يديها الساكنتين حركة تشنجية شديدة، ورشقتني في جرأة بنظرة حادة ثاقبة، وعاودت حديثها قائلة:

إنني لازلت على عهدي في الصراحة وصدق الرواية، وقد ثبت لي أن ذلك أمر جوهري؛ لأنه تبين لي الآن، وأنا في صراع مع نفسي أبذل جهدي لأصف لك للمرة الأولى تلك الساعة التاريخية في حياتي في ترتيب منتظم، أبحث عن الكلمات الصحيحة أصف بها مشاعري التي كانت منطوية ومضطربة حتى ذلك الوقت في أعماق نفسي، أدرك الآن في وضوح أشياء كثيرة لم أدركها أو لم أكن أود أن أدركها. فلهذا وطنت العزم على اتباع الحقيقة، دون تمويه أو مداراة في جرأة وعزم وحزم.

لقد شعرت وأنا في شبه غيبوبة، حين غادرني الشاب وتركني وحيدة في غرفتي، بلطمة شديدة سددت إلى قلبي فأصابته، كأنما نفذ

فيه خنجر مسموم شقه فخلف ألماً قاتلًا، وعجزت أو إنني أبيت أن أقنع نفسي بتعليل مظاهر المودة والاحترام والتقدير التي أبداها نحوي، لطمة أصابت مني مقتلاً! وأنا الآن أبذل جهد الجبابرة لكي أنتزع تلك الأحداث وأبعثها من غياهب الماضي في ترتيب وعزم، كما لو كان ذلك الماضي لا يتعلق بي أنا. اليوم أرى أنه من المتعذر أن أخفي عنك تلك الحقائق أو أموهها، أو أن أتلمس المعاذير لتبرير فعل مخجل أو عاطفة مخزية، لذا أراني أدرك اليوم مبعث ذلك الألم في جلاء واضح. لقد كان مبعثه في ذلك الوقت ضيعة الأمل وخيبة الرجاء، وأنا أراه ينصرف هكذا بغتة في هدوء وصمت، من غير أن تبدو منه ولو على أبسط الصور محاولة للتشبث بي أو البقاء معي. فقد رأيته يستكين وينصاع لما أشرت به عليه في خضوع وتوقير لأول مرة طلبت إليه فيها الرحيل. وكنت أتمنى لو أنه تودد إليّ، أو أغراني على البقاء معه، أو جذبني إليه في شغف وعنف. لقد رأيته وقد اعتبرني إحدى القديسات فأحاطني بهالة من الإجلال، ولم ينظر إليّ ويشعر بي على أساس أنني امرأة.

وقد كتمت خيبة أملي هذه وقتذاك حتى عن نفسي، وظللت على كتمانها بعد ذلك. بيد أنني أحسستها بين جوانحي وشعرت بها؛ لأن شعور المرأة مرهف دون أن يفصح أو يفضح، فهي أقدر على كبت مشاعرها وإخفائها عن الرجل. وقد كان ذلك دون وعي مني لحقيقة أمري وقتذاك، ولكنني الآن عاجزة عن إدراك نفسي. ولو أنه تشبث

بي وطلب إليّ أن لا أتخلى عنه وأن أتبعه، لوافقته على الفور ولذهبت معه إلى أقاصي المعمورة، دون أن أبالي بتلطيخ اسمي وتعريض لقب ولديّ للضياع، ودون أن أعبأ بما تلوكه الألسنة أو أصغي إلى ضميري. كنت لا أتورع عن الهرب معه، بل أبادر إلى ذلك كما فعلت هنرييت حين هربت مع ذلك الشاب الفرنسي الذي قيل إنها لم تكن تعرفه حتى الليلة السابقة على فرارهما. وما كنت أجسر أو أسمح لنفسي أن أسأله إلى أين نذهب، بل ما كنت أتردد لحظة لكي أفكر أو ألقي نظرة إلى حياتي الماضية. وإنما كنت أنزل طواعية لهذا الشاب عن ثروتي ولقبي وشرفي، وكنت أفعل المستحيل من أجله، ولا أتورع عن إتيان أحط عمل يشير به أو يدفعني إليه. كنت ألغي ألفاظ العفة والشرف والاحترام من قاموس حياتي!

لقد كنت رهن إشارة واحدة، فأقدم على كل ذلك لو أنه تفوه بكلمة أو بدرت منه بادرة أو بذل ولو أبسط محاولة لكي يحتفظ بي. إذ إنني كنت قد أقمت سداً بيني وبين عقلي في ذلك الوقت، وتعلقت به كل قطرة في دمي وذرة في كياني. ولكن وا أسفاه، لم يجد ذلك الإنسان –حتى بنظرة واحدة– على الأنثى الكامنة في أعماقي. لقد بلغت بي اللهفة إلى أن أطرح جانباً مقاييس الأخلاق، فأفرط في نفسي واسمي وشرفي إلى أبعد مدى. بيد أنني لم أدرك ذلك ولم أشعر به إلا حين وجدت نفسي وحيدة إثر تلك اللحظة التي غادرني فيها، وكان وجهه الجميل يتألق وقد أفصح عما يعتمل في نفسه من انفعالات.

واستبد بي هذا الشعور ووقع على نفسي وقع الصاعقة، فراح قلبي المهجور يئن ويتوجع!

ونهضت في تثاقل كمن ينهض لأول مرة بعد مرض أنهك قواه، وكان لديّ موعد بدا لي سقيماً. وأحسست وكأن جسماً ثقيلاً هبط على رأسي، فناء جبيني بثقله حتى كدت أتهاوى. ولم أستطع جمع شتات أفكاري، وسرت في تخاذل ميممة صوب الفندق الذي يقيم فيه أقاربي. وحين وصلت تهاويت على أحد المقاعد، تعلوني كآبة ظاهرة تميزت وسط أناس كانوا يتجاذبون أطراف حديث مرح. وتراءت لي وجوههم جامدة باردة كالثلج إذا قورنت بوجه فارسي الدافق بالحرارة والحيوية، فشعرت بالجزع إذ كان طيفه الحبيب يتناوب الظهور أمامي مع تلك الوجوه الصماء التي خيل إليّ أنها وجوه موتى وأن أصحابها لا تنبض بين جوانحهم حياة!

وفيما كنت أضع قطعة من السكر في قدح الشاي، وقد تحركت شفتاي ببضع كلمات في شرود، كان يتراءى لي ذلك المحيا الذي أضحى مجرد التفكير فيه مبعث نشوة روحية وفرح طاغ، وهو يطفو من أعماقي وأغوار نفسي كأن قوة سحرية دفعته من دمي الفائر.. هذا المحيا.. وا حسرتاه.. سوف أراه لآخر مرة بعد ساعة أو بعض ساعة. ولعل أنة واهنة أو زفرة خافتة مكتومة ند عنها صدري دون وعي مني حين فاجأتني إحدى قريبات زوجي وسألتني عما إذا كنت

مريضة أو أشعر بتعب، وقد رأت الشحوب يعلو وجهي والقلق يلفني إلى أقصى مدى، فانتهزت هذه الفرصة وزعمت أني أعاني صداعاً ألم بي، ثم استأذنت بالانصراف دون أن يشعر أحد. وما إن خرجت حتى حثثت السير وأسرعت الخطى عائدة إلى الفندق حيث لذت بحجرتي، وخلوت إلى نفسي وهمومي وأفكاري، فشعرت بالخواء المضني والوحدة القاسية. وأحسست برغبة ملحة في أن أكون بالقرب من ذلك الشاب، الذي سأفترق عنه اليوم إلى الأبد، وقد استبدت بي تلك الرغبة في عنف وقسوة، فأخذت أذرع الحجرة جيئة وذهاباً كشخص فقد عقله وصوابه، ورحت أفتح الأدراج دون ما سبب ودون أن يكون هناك ما أبحث عنه، وأخذت أغير ثيابي وأبدلها، كي أبرر وقوفي أمام المرآة. وساءلت نفسي، وأنا أرقبها بعين ثاقبة، عما إذا كنت وأنا على هذه الزينة وهذا البهاء عاجزة عن اجتذاب ذلك الشاب إليّ؟!

وأدركت حقيقة مشاعري نحوه ومبلغ انعطافي إليه، حتى أنني كنت لا أحجم عن أي أمر أو أية حماقة من أجل الاحتفاظ به، وطغت عليّ فورة مضطرمة استحالت إلى رغبة ملحة وتشبث وإصرار، فأعلمت كاتب الفندق بعزمي على الرحيل والسفر في مساء نفس اليوم. فقد أصبح من الضروري أن أقوم بعمل سريع وإجراءات حاسمة، واستدعيت الخادمة لتعاونني في إعداد الحقائب، إذ لم تكن هناك فسحة من الوقت تسمح لي بإعدادها بمفردي، وأسرعنا في جمع الملابس وأدوات الزينة والحاجيات الأخرى الصغيرة ورحنا نكدسها في

الحقائب، وأنا أتمثل في ذهني وخيالي تلك المفاجأة التي أرسم خطوطها وأحيك خيوطها وأتخيل الصورة التي ستتم بها. وخطرت لي فكرة التظاهر بالرغبة في الصعود إلى القطار، لنتبادل تحية الوداع الأخيرة، وأتخيل الدهشة التي ستتولاه بعد ذلك حين يرى حقائبي وحين يراني وقد أخذت مكاني في القطار حتى لا أفترق عنه بل لأقضي في رفقته تلك الليلة والليالي التالية التي يسعدني قضاؤها معه.

واستشعرت غيظاً مشرباً بالنشوة، حتى لقد كدت أنفجر في قهقهة عالية وضحكات هستيرية وأنا أضع الثياب في الحقائب حتى عجبت الخادم من أمري وأخذتها الدهشة لتصرفي. وشعرت ببلبلة في أفكاري وعدم استقرار أو اتزان، حتى أنني أخذت أنظر في استغراب ودهشة إلى الحمال حين جاء لينقل الحقائب فقد كان من المتعذر عليّ أن أفكر تفكيراً هادئاً سليماً بينما تطفح نفسي بالبهجة وروحي بالنشوة. وأزف الوقت فقد راح يمر بي سراعاً، وأشرفت الساعة على السابعة، ولم يبق على موعد قيام القطار سوى نصف ساعة. ولفني شعور هادئ لطيف تخلل تلك الفورة لأنني لم أكن ذاهبة إلى وداع أخير بل إلى لقاء وجمع شمل مع من أسر قلبي وفؤادي!

وراح الحمال ينقل الحقائب، كما ذهبت أنا إلى إدارة الفندق لأسدد الحساب. وأعقبت ذلك لحظة لم تكن في الحسبان، فقد شعرت بيد تربت على كتفي فارتجفت جزعاً. كان تظاهري بالألم والتعب قد

شغل قريبة زوجي حين كنت في زيارتها، فدفعها ذلك إلى الحضور لكي تراني وتطمئن على صحتي، فدارت بي الدنيا وارتج عليّ الأمر فلم أدر كيف أتصرف، والوقت والموقف لا يتسعان للتفكير في عذر أو حيلة، وكل لحظة تمر معناها إفلات الفرصة وضياعها. بيد أنني رأيت من باب اللياقة والمجاملة أن أمنحها فترة قصيرة من الوقت أستمع فيها إلى ما ستقول.

وأخذت تنصحني في تشبث وإصرار بأن ألزم فراشي ولا أبرحه، لأنني على حد قولها محمومة. وربما كان الأمر كذلك، فقد كنت أشعر حقاً كأن أتونًا يشتعل في داخلي، وازدادت ضربات نبضي في عنف وقسوة، وشعرت بأنني موشكة على إغماء. بيد أنني لم أوافق على مشورتها مع تقديري لنصحها وتقديم شكري لها. وكانت كل كلمة أتفوه بها وكأنها قطعة حجر تخرج من فمي، فقد جاءت نصيحتها في غير الوقت الملائم لذلك. وظلت هذه القريبة السمجة في مكانها، وقدمت إليّ بعض العطور وتبرعت مبالغة منها في مجاملتي بأن تدلك وجهي بتلك العطور. وكل ذلك وأنا أحصي الدقائق وأعد الثواني وقد شرد ذهني واتجه فكري بكليته إلى معبودي. ورحت أفكر في عذر أتعلل به لأجعلها تعدل عن تلك الرعاية التي ضقت بها ذرعاً، فأخذ اضطرابي يزداد وقلقي يظهر على قسمات وجهي مما جعلها ترتاب في أمري، فلم تتورع عن مخاطبتي في شدة لتحملني على ملازمة الفراش.

وتركزت نظراتي، وهي تتكلم، عن ساعتي ودوران عقرب الدقائق فيها وهو يقترب حثيثاً من موعد قيام القطار. حتى لقد انصرمت ثمان وعشرون دقيقة بعد الساعة السابعة، ولم يبق على تحرك القطار سوى سبع دقائق. وفي حركة مباغتة وفي عدم مبالاة اليائس، مددت يدي وقلت لها في اقتضاب:

– لابد لي من أن أرحل الآن.. وداعاً.

وأسرعت نحو الباب لا ألوي على شيء، ولا أحفل بعلامات الدهشة والاستغراب والتساؤل التي ارتسمت على وجهها، ولا بالنظرة التي تزخر بالحيرة التي رشقتني بها. ولم ألتفت إليها ولا إلى الخدم الذين راحوا يحملقون فيّوقد انعقدت ألسنتهم، ورحت أحث السير وأعدو صوب المحطة.

وكان الحمال يستحثني وهو يسبقني بين خطوة وأخرى، فأدركت أن الوقت قد أزف وأن القطار على وشك التحرك، فهرولت في جنون واندفعت نحو باب المحطة. وإذا بالرقيب يستوقفني كي أبرز تذكرتي ولم أكن قد حصلت عليها من شباك التذاكر، ورحت أقنعه في سخط أن يدعني لأتمكن من اللحاق بالقطار، فإذا به يرسل صفيره الحاد ويتحرك. فوقفت مشدوهة ورحت أحملق، وكل ذرة في كياني ترتعد وترتجف، وانبعث فيّ الأمل في نوافذ عربات القطار التي راحت تتوالى أمام عيني في أن أحظى بطلعة معبودي وأنا أرى منه إيماءة أو إشارة

تحية. وسار القطار أولاً رويداً رويداً، ثم أخذت سرعته تزداد حتى أصبح من المتعذر عليّ أن ألمح الوجه الحبيب. وتلاحقت العربات في إثر بعضها، وبعد دقيقة ابتعد عن المحطة ولم يظهر منه لعيني الزائغتين سوى غمام دخانه الداكن ينفثه في حلقات تمتد فوقه.

وظللت في وقفتي جامدة لا أتحرك، ولا أدري كم بقيت هكذا. ولم أتنبه إلى الحمال وهو يخاطبني، فدفعه ذلك إلى أن يلمس ذراعي، فارتجفت مذعورة، واستفسرني هل يعود بالحقائب من حيث أتينا. فانتظرت لحظة أستجمع فيها شتات أفكاري وأستعيد رباطة جأشي. ووجدت أنه ليس من الصواب أن أعود إلى الفندق بعد أن بارحته على تلك الحال الغريبة، كما لم أجد في نفسي الرغبة في العودة إليه. ارتبكت واختلط عليّ الأمر، فأشرت عليه بأن يودع الحقائب مكتب الأمانات.

الفصل الثاني عشر

مضت فترة من الزمن لا أدري مقدارها، ظللت فيها في فناء المحطة ومن حولي حشود من الناس تروح وتغدو متدافعة وقد اشتد صخبهم وارتفعت ضوضاؤهم دون انقطاع وكأنهم خلية نحل يصم طنينها الآذان. بيد أنهم أخذوا يتسللون واحداً واحداً ويقل عددهم بين دقيقة ودقيقة، فبدأت أسترجع رشدي وأستجمع شتات ذهني، لأهتدي إلى ما يخفف عني بعض ما أعانيه من ضيق وألم وسخط وأسى ويأس، فقد اجتاحتني كل هذه المشاعر، التي تألبت عليّ في وقت واحد بشكل عنيف قاس، حتى لقد أحسست بأن لفائف قلبي تتمزق في ألم وبلا رحمة. وراح ضميري يؤنبني في وخز أليم بأن ما حدث من تخلفي كان نتيجة لسوء تصرفي، وعليّ تقع اللائمة. فكان هذا الشعور بمثابة الخنجر المسموم وقد رشق في قلبي.

ومن الأمور البديهية أن الصدمات العاطفية التي تحدث على غير توقع أو انتظار، والتي تشبه انهيار جبل شامخ أو هبوب عاصفة هوجاء، لا يحس بها إلا من عاشوا حياة رتيبة بعيدة عن الانفعال، لأنهم يفاجأون بتلك الطاقات العاطفية والأزمات النفسية تتدفق في فورة من أغوارهم. ولم يسبق لي من قبل أن صادفت صدمات كهذه في حياتي، فكان شديد الوقع على نفسي ما استولى عليّ من سخط

طاغ حين وجدت نفسي عاجزة عن أي تصرف. فبينما كنت على استعداد للإقدام على أية حماقة، وإنكار المثل العليا للأخلاق، والتخلي عن الرزانة وإطلاق العنان لعواطفي المشبوبة والتي ظلت مكبوتة في داخلي أعواماً طويلة، إذا بالعقبات تقف في طريقي وتضيع محاولاتي سدى.

وازددت عناداً وإمعاناً في الطيش والرعونة حتى لأشعر بالخزي إن أنا رويت لك ذلك تفصيلاً. بيد أنني مقيدة بعهدي الذي قطعته بأن ألتزم الصدق والصراحة وأن لا أخفي عنك شيئاً أو أمراً، فقد سعيت في البحث عنه، ورحت أجتر لحظات السعادة التي قضيتها معه. وساقتني قدماي فجست خلال كل شبر من الأرض ارتدناه بالأمس، فذهبت إلى الحديقة وألقيت نظرة على المقعد الذي كان يجلس عليه فيها، ثم توجهت إلى حجرة المقامرة التي كانت أول مكان رأيته فيها، بل ساقتني قدماي دون وعي إلى ذلك الفندق المتواضع، لأستعيد الذكريات. وحين أهل اليوم التالي، استشعرت إحساساً طاغياً فركبت عربة وطلبت إلى السابق أن ينطلق بي إلى الشاطئ عبر الطريق الذي سلكناه أنا وهو بالأمس. وبلغ بي الاضطراب حد الهوس، فكانت تصرفاتي تتسم بالصبيانية.

وشعرت في ذهولي بضربة قاصمة، بيد أنني حين أفقت من شرودي شعرت برغبة ملحة في الحياة كي أستمتع بتلك الذكريات

وأعيش في دنيا خيالها على الطريقة الأفلاطونية. حقاً إن هناك أموراً تستغلق على العقل البشري تحتاج لإدراكها إلى قلب واع وفكر متوقد.

وكان ذهابي إلى قاعة اللعب لكي ألقي نظرة على المائدة التي كان يجلس إليها لأستعيد ذكرى يديه في حركاتهما الانفعالية. وكنت أتصور كل حركة بدرت منهما في وضوح، فلم أجد عناء في الاهتداء إلى مائدته لأن جميع حركاته كانت منطبعة في ذهني وخيالي. وجلت ببصري خلال ذلك الحشد من المقامرين، ففاجأني أمر لم يكن في الحسبان ولم يدر بخلدي قط أن يكون. فقد وجدته، وفي نفس المكان، جالساً إلى نفس المائدة. ولم أصدق عيني، وخيل إليّ أنني أمام وهم من نسج الخيال أو تحت وطأة بلبلة أفكاري أو بسبب أي تأثير. ولكنه كان هو، هو بلحمه ودمه، كما رأيته بعين الخيال منذ لحظة، وكما كان في أمسه، وقد تركزت عيناه على الكرة، وقد اكتسى وجهه بشحوب شديد، فلم أشك في أنني أمام حقيقة ماثلة.

وأذهلتني المفاجأة وذهبت بالبقية الباقية من رشدي فكدت أصرخ، ولكني تمالكت نفسي وسيطرت على زمام أعصابي، ثم أغمضت عيني ورحت أهذي لفرط ما انتابني:

– لابد أن مساً من جنون أصابك، أو أنك ترزحين تحت حلم من الأحلام، أو أن حمى أصابتك فخيلت لك هذه الرؤيا، إن ذلك

مستحيل.. مستحيل؛ لأنه رحل منذ فترة بالقطار.

بيد أنني حين فتحت عيني، طالعني نفس المشهد. فقد كان ماثلاً أمام عيني وهو جالس إلى المائدة بكيانه وجسمه، ما في ذلك شك، وكان من السهل أن أميز يديه بين جميع الأيدي. إذن فما كنت حالمة لأنه هو وقد عاد، ولم يرحل كما قطع على نفسه عهدًا بذلك. لقد تخلف التعس وارتد إلى اللعب بالنقود التي نفحته بها ليعود إلى وطنه. لقد استعبدته نزوة المقامرة فجاء يقامر بنقودي، في الوقت الذي كاد اليأس من عثوري عليه يقضي عليّ.

وتملكني غضب عات تطور إلى ثورة هوجاء، فاندفعت إلى الأمام تحدوني رغبة جامحة ملحة إلى أن أكيل اللطمات على ذلك الوجه الشاحب لهذا الشاب الذي حنث بالعهد الذي قطعه واستهان بالثقة التي وضعتها فيه، ولم يأبه بشعوري وصدق نيتي في دناءة ووضاعة وخسة. بيد أنني عدت فكظمت غيظي وتمسكت بأهداب العقل، فسرت نحوه في بطء متعمد وبذلت في ذلك جهدًا فوق الطاقة حتى صرت في مواجهته، وقفت حيث لا تفصلني عنه سوى المائدة، فكان من السهل جدًّا أن أتبين معالم وجهه، وتأملته مليًّا، فإذا بذلك الوجه الذي كان يتألق منذ ساعات قلائل بما أضفته عليه مشاعر العرفان بالجميل، وأحاطت رأسه في الكنيسة هالة قدسية، وقد زايله كل ذلك فأضحى فريسة طيعة لتلك النزوة الشيطانية. وإذا بيديه اللتين تطهرتا

بتشبثهما بستار المذبح وهو يلقي بأقدس يمين وأغلظه، قد عاودهما الانفعال والتقلص والتوتر، وكأنهما مخالب في انقضاضهما على النقود التي انتشرت أمامه. وأدركت أن الحظ كان مواتيًا له، وأن ربحه وفير إلى درجة كبيرة حتى أن العين لم تستطع أن تلم بما كانت يداه تجمعه من قطع ذهبية وأوراق مالية و"فيشات" اللعب، وقد أخذت أصابعه تجمع تلك الأكداس في مزيج من التوتر والفرح والنشوة. وإذا به يرتب الأوراق المالية ثم يطويها، ويعود إلى القطع الذهبية فيقبض عليها في نهم وشغف، ولا يلبث أن يطوح ببعضها إلى أحد المربعات، ويعاوده الانفعال. واسترعى انتباهه نداء الرقيب فراح يتبع بعينيه حركة الكرة في دورانها، وخيل إليّ وقتئذ أن روحه توشك أن تنطلق من جسده وهو مستغرق بكليته ومشاعره المرهفة في رقعة "الروليت"، فكانت حاله تبعث على الرثاء أكثر من حاله بالأمس، إذ كان الأمل الشاهق الذي تركزت فيه جهودي قد انهار من أساسه!

ورحت أتأمله مليًّا وأنعم النظر في قسمات وجهه دون أن يفطن إلى وجودي، إذ كانت عيناه مركزتين في أمر واحد هو اللعب وقد استغرق فيه بكليته فما كان يرفع عينيه إليّ أو إلى غيري لأنه كان يشخص ببصره إلى النقود دون سواها ويتابع في قلق دوران الكرة، فكانت مائدة "الروليت" المستديرة الخضراء هي المسرح الوحيد لجميع حواسه اللاهثة، فهي دنياه التي لا يتعداها أفق تفكيره. وجال بذهني أن ساعات طوالًا قد تمر بي وأنا على تلك الحال دون أن يشعر أو

يفطن لوجودي. وضاقت نفسي وأفلت زمامي، فسرت حول المائدة في حزم ووقفت خلف ظهره، وأمسكت كتفه، فشاعت الحيرة في عينيه وأخذ يحملق في وجهي بنظرات زائغة كأنه ينظر إلى شخص غريب لم يسبق له أن رآه. لقد كان كإنسان تناول مقدارًا كبيرًا من مخدر، من العسير أن يفيق بسرعة وقد ران أثر المخدر على عينيه. وانقضت فترة لاح لي بعدها أنه عرفني إذ انفرجت شفتاه في اختلاج عصبي، وراح يرمقني بنظرة طويلة نمت عن شعوره بالبهجة والسعادة، وتمتم في صوت خفيض غير واضح النبرات وفي بساطة وتودد وقد ران عليه الشرود والغموض:

– إن الحال تسير إلى أحسن، لقد شعرت بك بمجرد دخولك وحين رأيته هناك.. وقد أحسست بذلك في وقته.

ولم أدرك مغزى كلامه، وظننت أن نزوة اللعب قد طغت على فكره، وأنهلم يعد يذكر شيئاً، فنسي وعده وقسمه، بل نسي العالم أجمع، حتى أنانسيني أيضاً. ولكن البريق الذي تألق في عينيه حين وقع نظره عليّ كان زاخرًا بالإغراء رغم تعاسته وإفلات زمامه وانصياعه للشيطان. ولذلك وجدت نفسي أفكر فيما يقول على الرغم مني، فاستفسرته عما يقصد بكلمة "رأيته" وعمن يعنيه بهذه الكلمة، فمال عليّ وكأنه يفضي إليّ بسر يحرص على ألا يسمعه أحد سواي وقال:

– أعني ذلك الضابط الروسي العجوز المبتور أحد ذراعيه، الذي

يجلس هناك ومن خلفه تابعه. لقد لاحظت أن الحظ يواتيه وأنه يربح في معظم الجولات، فأدركت أن له نمطًا خاصًّا في اللعب.

فرحت أسير على منواله. والحظ في جانبه من الأمس حتى الآن، وقد كانت حماقة مني أن ظللت ألعب بالأمس بعد انصرافه. ولعل أرباحه في الليلة السابقة نيفت على العشرين ألفًا من الفرنكات، وهو يربح اليوم في كل جولة، وأنا الآن أنهج نهجه وأسير على منواله فأضع النقود في المربع الذي يضع فيه نقوده، والآن....

وتوقف عن الكلام فجأة حين صاح الرقيب بصوته الثاقب:

– الآن يبتدئ اللعب.

فتحول الشاب بنظره على مهل إلى الضابط الروسي، فإذا به يراه يضع في هدوء قطعة من النقود الذهبية فوق المربع الرابع، وبعد لحظة يضع قطعة أخرى. وفي لمح البصر رأيت الشاب يدس يده المرتجفة في أحد جيوبه ويخرج عدداً من القطع الذهبية ويضعها على الفور في المربع ذاته، وصاح الرقيب بعد دقيقة معلنًا "الصفر" وراح يحصد بمجدفته النقود من المائدة. ورأيت الشاب قد زاغ بصره في ذهول كمن لا يصدق فقدان هذه النقود.. وهل تظن أنه التفت إليّ؟ لقد بدا وكأنني غبت عن ذاكرته وتلاشيت من محور أفكاره ولم يبق لي كيان في محيط حياته. فقد استغرقت حواسه في ذلك الضابط الذي تناول قطعتين أخريين، وراح يفكر في اختيار المربع الذي يضعهما فيه.

وليس في استطاعتي أن أصف لك ما لفني من غصة وقنوط، ولكن في وسعك أن تتصور مدى ما استشعرته من خيبة أمل نحو شاب بذلت كل ما وسعني أن أبذله لكي أحفظ عليه حياته، فإذا أنا في نظره كائن تافه، لا يقيم لصنيعي وزنًا ولا يحمل لي تقديرًا. فعاد الحنق يستعر في نفسي، فجذبته بعنف حتى انتصب واقفًا، وقلت له في صوت خفيض ولكن بلهجة قاسية آمرة:

– اترك اللعب وانصرف على الفور، وتذكر العهد الذي أخذته على نفسك بين يدي الله في الكنيسة، أيها التعس الذي لا يرعى ذمة أو عهدًا.

وهزت كلماتي كيانه، فحملق فيّ مشدوهًا وشحب وجهه حتى أصبح في صفرة وجوه الموتى، واسترخت عيناه واستكان في ذلة الكلب المهيض، وراحت شفتاه تختلجان وترتجفان وكأنما تراءى الماضي بأحداثه أمام ناظريه. وبدا كأنه قد برم بنفسه في اشمئزاز، فتمتم في تلعثم:

– آه.. أجل.. نعم.. يا إلهي.. سأنصرف، اغفري لي.

وراح يجمع النقود في عجلة وتحمس، ولكنه أخذ يتراخى شيئاً فشيئاً، وكأنما هناك قوة خفية تهيب به ألا يفعل. وعاد يرنو ببصره إلى الضابط الروسي الذي كان قد استقر رأيه على رقم معين، وفجأة رأيت الشاب يلقي في لمح البصر بضع قطع ذهبية في المربع الذي وقع

عليه اختيار الضابط، ويقول في لهجة اعتذار:

– لحظة واحدة ولن ألعب سوى هذه الجولة.. أقسم على ذلك وسأنصرف بعدها لتوي.

وتلاشى صوته وهو يتابع دوران الكرة. لقد أفلت زمام المسكين من نفسه ومني، إلى أن استقرت الكرة في فجوة أخرى، وصاح الرقيب معلنًا رقمًا وامتدت مجرفته تجمع القطع الذهبية. إذن فقد خسر الشاب، فلم يلتفت نحوي، ولم يعد لي وجود في ذاكرته كما نسي العهد الذي قطعه على نفسه، والوعد الذي لم تمر عليه دقائق. وعاود اللعب، فعادت يده تندس في جيوبه في توتر وانفعال لتخرج بالنقود التي أخذت تتناقص. وظل طيلة الوقت يشخص ببصره إلى الضابط الروسي، الذي ظن أنه يجلب له الحظ، فانصاع وراءه.

الفصل الثالث عشر

وطال الأمر ونفد صبري، فدفعته بيدي في عنف وقسوة وصحت فيه:

– انهض الآن لتوك، فقد ذكرت أن هذه آخر جولة تلعبها.

وملأني الهلع حين استدار نحوي، ورأيت ذلك الوجه على غير عهدي به من الوداعة والاستكانة والخوف قد تحول إلى وجه ثائر، وجه مخلوق استبد به الشر والغضب، فراحت عيناه تقدحان شررًا وشفتاه ترتجفان من الحنق، وصاح بي في فورة جامحة وجمود بغيض:

– لماذا تزجين بنفسك في حياتي؟ دعيني لشأني واغربي عني لأنك مصدر نحس، لقد لازمتني الخسارة في وجودك. حدث هذا بالأمس وها هو ذا يحدث اليوم، انصرفي بالله عليك.

وأخذتني المباغتة فرحت في ذهول، وإزاء هذه المكابرة، ونكران الجميل شعرت بكرامتي تمتهن وبمرجل الغضب يغلي في نفسي، فقلت له:

– هل تعزو نحسك إليّ أنا؟ هل نسيت قسمك أيها المنافق اللص الكذاب؟

وسكت، فلم أزد على ذلك حرفًا. ويا لهول ما أعقب ذلك، فقد قفز كالمجنون ودفعني في فظاظة دون أن يراعي شعور الموجودين الذين هبوا واقفين مستنكرين، ولكنه صاح بصوت عال في وقاحة وخسة:

– لا تريني وجهك! إنني لست قاصرًا ولست أنت ولية أمري! ها هي ذي نقودك. فاغربي عن وجهي ودعيني لشأني!

وألقى في وجهي بضع ورقات مالية من ذات المائة فرنك. وقد علا صوته وكأن مسًّا أصابه، غير عابئ بالعشرات من الناس الذين تجمعوا حوله، وراحوا يتطلعون إليه في تهامس وتغامز وهم يضحكون. وبلغ من شدة الضوضاء التي أحدثها أن أقبل الكثيرون من الحجرة المجاورة لينظروا ما حدث بدافع الفضول، فاستولى عليّ خجل شديد. وخيل إليّ أنني أقف مجردة من ثيابي وسط هذا الحشد الغريب.

ودق الرقيب المائدة بمجرفته وصاح فيّ بصوت عال:

– أرجو أن تلزمي الصمت أيتها السيدة!

ومن عجب أنه وجه الكلام لي أنا كأنني أنا التي أحدثت الضوضاء، فشعرت بالهوان والخزي إذ وجدت نفسي محط أنظار الجميع ومادة همهمتهم وهمساتهم، كما لو كنت إحدى فتيات الليل أنقدوها أجرها فلماذا تنتظر وماذا يدفعها إلى البقاء. وراحت الأعين تحملق في وجهي، فانتحيت ركنًا وقد استشعرت الذلة والخزي،

وأشحت بوجهي لأتفادى نظرات الفضول، وإذا بعينين أذهلهما حرج موقفي فأخذت صاحبتهما تنظر إليّ مشدوهة وقد فغرت فاها لفرط الدهشة، ثم رفعت يدها تحت تأثير الذعر الذي ألم بها. لقد كانت قريبة زوجي!

ووقع عليّ وجودها وقع الصاعقة، واشتعلت في نفسي مشاعر الغيظ والألم، فهرولت خارجة من حجرة اللعب قبل أن تفيق من ذهولها ودهشتها. واستطعت بقوة لا أدري من أين أتتني أن أصل إلى مقعد بحديقة الفندق، نفس المقعد الذي كان يجلس عليه ذلك المخبول بالأمس مهدمًا محطمًا، وتهالكت على المقعد مهيضة مهينة محطمة، مثلما كان هو.

كان ذلك منذ حوالي ربع قرن، ومع ذلك فإن تأثيره القاسي في نفسي ما يزال كما لو كان قد حدث بالأمس. فقد اكتويت بإهانته لي على مرأى من هؤلاء الغرباء، يستغلق عليّ الأمر كلما فكرت في تلك الألغاز التي يطلقون عليها أسماء متنوعة كالنفس والعقل والشعور والألم، وكيف تقف كلها مكتوفة رغم فورتها واحتدامها عن السيطرة على الجسد الذي يتعذب ويتلظى ويتحطم. وكيف يتسنى لمخلوق حي أن يعيش بعد تلك الأحداث والأهوال لمجرد جريان الدم في شرايينه ولا يدركه العدم كما يحدث للشجرة إزاء عاصفة هوجاء تطيح بها!

بيد أن الألم لم يلازمني سوى لحظة خاطفة، هي التي تلقيت فيها

اللطمة. وعندما ارتميت على المقعد متهالكة خائرة النفس لاهثة الأنفاس أكاد أختنق، استشعرت مرارة الموت. ولكن الحقيقة التي لا يمكن إنكارها أن الألم شعور واهن لا يلبث أن يتقهقر ويتلاشى أمام غريزة حب الحياة، تلك الغريزة المتأصلة في نفوسنا رغم ما نلقاه من متاعب وأهوال، حتى لترجح كفتها الرغبة في الخلاص من تلك الحياة.

ولم أستطع أن أفسر كيف عدت إلى رشدي رغم تلك الصدمة القاصمة العنيفة، وإن لفتني الحيرة فيما ينبغي أن أفعل وكيف أتصرف؟ وقفز إلى ذهني أن الحقائب لا تزال في مكتب الأمانات بالمحطة، واستتبع ذلك بروز فكرة الرحيل التي أخذت تستبد بي في إلحاح. الرحيل من هذا المكان إلى أي مكان بعيدًا عن هذه البقعة الموبوءة وبؤرة الفساد، فرحت أسرع الخطى ما وسعتني قوتي نحو المحطة لا ألوي على شيء وقصدت مكتب الاستعلامات لينبئني عن موعد أول قطار لباريس، وبادرت إلى سحب حقائبي حين علمت أن موعده في الساعة العاشرة.

وذلك الموعد هو تمام أربع وعشرين ساعة منذ ذلك اللقاء المقيت، كانت زاخرة بالأحداث والأهوال، وبالأحاسيس والمشاعر التي خلفت في نفسي جرحًا لا يندمل مدى الحياة.

وألح على ذهني وراح يتوارد عليه في البداية أمر واحد، هو الرحيل، وأن ليس من سبيل سوى الرحيل. فأخذت نفسي تردد ذلك

في تواتر لكي أهرب من هذا المكان ومن نفسي وشجوني، وأعود إلى موطني بين عشيرتي وأهلي، وإلى حياتي الأولى المطمئنة الرتيبة.

واتخذت مكاني في القطار فقضيت به ليلتي، ووصلت باريس ومنها أخذت أتنقل من مكان إلى مكان، وأخيرًا رأيت أن أتجه إلى بولوني ثم إلى دوفر، مفتاح الطريق إلى لندن. وإذ بلغتها يممت شطر البيت الذي كان يقيم فيه ابني.

وقد حدث كل ذلك في سرعة خاطفة في غير ما تفكير أو تدبير، فقد كان فكري عاطلًا حتى عن النوم والحديث والطعام مدى يومين كاملين إلا من فكرة الرحيل!

وما إن حططت الرحال، وبلغت منزل ابني ودخلته على غير موعد أو توقع، حتى ارتسمت علامات الدهشة والجزع على وجوه أهل البيت جميعًا. فقد نمت نظراتي عما في دخيلة نفسي، وتراجعت مذعورة مجفلة حين أراد ابني أن يقبلني؛ لأنني لم أحتمل أن أراه يقبل شفتين أعتبر أن طهارة الأمومة زايلتهما فأضحتا دنستين! وأطبقت فمي عن الكلام أو الرد عليّ ما وجه إليّ من أسئلة. وإنما أبديت الرغبة في إعداد الحمام، فقد طغى عليّ إحساس عجيب بالرغبة في تطهير جسدي من أوزاره لا من آثار وعثاء السفر، ومما بدا لي أنه شابه من طيش ذلك الشاب ونزوته البشعة. وتحاملت في جهد وإعياء حتى وصلت إلى المخدع، فاستلقيت على الفراش ورحت في نوم عميق

دام أكثر من اثنتي عشرة ساعة كنت خلالها شبه ميتة أو مخدرة تخديرًا تامًّا، أدركت منه كيف يكون الموتى حين يرقدون في توابيتهم!

وفزع الجميع لأمري وقلقوا، فقد ظنوا أنني أعاني من وطأة المرض، وأتى حدبهم عليّ بعكس ما كنت أنتظر وأرجو، فقد نبه حواسي إلى ناحية قاسية وأيقظ فيّ كوامن الألم، فاستشعرت الخزي وشعرت بأنني لست أهلًا لعطفهم وتقديرهم. وبذلت قصارى جهدي كي أملك زمام نفسي حتى لا تعتريني نوبة أكشف لهم فيها عن خستي وخيانتي تحت تأثير نزوة جامحة عارضة.

وقضيت بينهم فترة من الزمن لا أدري كيف مرت بي ساعاتها؟رأيت بعدها أن أرحل إلى إحدى القرى الفرنسية اخترتها مصادفة دون أن تكون لي صلة بأحد من أهلها, لسبب واحد هو أنه بدا لي أن عاري سيظهر جليًّا للناس، وأنهم إذا كانوا يعرفونني من قبل فإنه سيتضح لهم ما طرأ عليّ من تغير حيث رزحت أعماقي تحت وطأة الشعور بالإثم والدنس. حتى لقد كنت حين أستيقظ في الصباح يلفني الهلع والفزع، فلا أجسر على فتح عيني. فقد كانت أحداث تلك الليلة المشئومة ماثلة في ذهني وخيالي، أتمثل كيف حدث ذات يوم أن صحوت من نومي فوجدت رجلًا غريبًا ممددًا على الفراش إلى جواري وقد تجرد من معظم ثيابه، فيراودني نفس الإحساس الذي شعرت به وقتذاك وهو تمني الموت!

بيد أن دوران عجلة الزمن طلسم كبير للأحداث، يستنفد عمر الإنسان كافة مشاعره. حتى أن تقدم الأعوام يزيد دنو الإنسان من الموت، فيظلل حياته بغمامة قاتمة فيفقده ذلك الاستمتاع أو الإحساس بمباهج الحياة، على العكس تمامًا مما يستشعره الإنسان حينما تكون الحياة مقبلة زاخرة بفورة الشباب والحيوية.

هكذا أخذت أستجمع شتات أفكاري وأسترجع رشدي من الصدمة العنيفة التي منيت بها. وحدث أن التقيت في إحدى المناسبات بموظف بالمفوضية النمساوية، وكان شابًّا في مقتبل العمر من أصل بولندي، فوجدت نفسي أستعلم منه عن أسرة الشاب الذي شاطرني إثمي. فسمعته يقول:

– أذكر أن شابًّا من أفراد تلك الأسرة قد انتحر منذ عدة سنوات وكان وقتذاك في مونت كارلو.

ولم يقع مني الخبر موقع الدهشة أو الألم أو الرثاء، بل ربما استشعرت الراحة لسماعه. فقد دفعتني الغريزة بأن نهاية ذلك المنكود قد حسمت كل شيء وقضت على أي احتمال للقائه في المستقبل. وتبعًا لذلك لم تعد هناك قرينة على خطيئتي سوى الذكريات. فغمرتني منذ ذلك الحين طمأنينة ناعمة؛ لأن الشيخوخة في حد ذاتها لا تبعث في النفس القلق بل إنها مرحلة العمر التي ينبغي أن يحياها الإنسان بلا خوف وقد طلق ماضيه بذكرياته.

ولعلك تدرك الآن السر في تلك الرغبة الملحة في أن أروي لك ماضي حياتي، لأنني عندما رأيت موقفك من مدام هنرييت وأنك في صفها تدافع عنها، وتقرر في حزم أن يومًا واحدًا بل أقل يستطيع أن يحول حياة أية امرأة إلى النقيض، شعرت وكأنك تقصدني بما قلت، فاستشعرت نحوك الشكر والامتنان، إذ قدرت أنك تدافع عني. فكان هذا حافزًا لي على أن أفضي إليك بمكنون سري، فتخف عني وطأة ذلك الماضي، وينزاح ذلك الإثم الذي يلاحقني وتقضني ذكراه في غير رحمة أو هوادة. حتى إذا ما قدر لي يومًا من الأيام أن تطأ قدماي قاعة اللعب التي كانت يومًا المحور الذي تحولت فيه حياتي، دخلتها دون أن أستشعر حقدًا على نفسي أو على ذلك الشاب.

نعم، جال بخاطري أن اعترافي سيكون بمثابة المسوح الذي يطهرني ويرفع عني ذلك العبء الجاثم فوق صدري، فينزاح عني إلى غير رجعة.

إنني أشعر الآن بالهدوء والطمأنينة والسعادة تغمرني بعد أن سنحت لي الفرصة فقصصت عليك قصتي، فقد نفست عن نفسي وأوشكت أن أستشعر الهناء وراحة البال. فشكرًا لك من أعماق القلب".

ونهضت عن مقعدي إذ أدركت أنها قد أنهت قصتها، وحاولت في حياء أن أسري عنها.. ويظهر أنها فطنت إلى ما جال بخاطري فقالت على الفور:

– أرجو أن تلوذ بالصمت.. لا تجاملني ولا تعقب بقول، فشكرًا لك من أعماقي وقد اتسع صدرك فأصغيت لقصتي. رعاك الله!

وكانت قد انتصبت واقفة ومدت يدها لتودعني، وتطلعت دون قصد مني إلى صفحة وجهها، فإذا أسارير هذه العجوز التي صبغها الحياء والحرج تثير الرثاء في نفسي والشفقة والعطف في قلبي، وفجأة اكتسى ذلك الوجه الذي تتوجه هالة شعرها الأبيض بحمرة محتقنة. ترى هل كان ذلك صدى لجذوة العاطفة التي خبت؟ أم كان مظهرًا من مظاهر الارتباك؟حتى لقد ذكرتني بالفتاة التي تذكيها ذكرياتها فتضطرب في خفر وتسشعر الحرج في اعترافها.

وشعرت بشتى الأحاسيس، وراح الانفعال يسري في كياني دون وعي مني، وشملتني رغبة ملحة طاغية في أن أظهرها بما أحمله لها من توقير وتقدير، فارتج عليّ، وغاص الكلام. ولم أجد أمامي سوى أن أنحني لها في إجلال واحترام بالغين، وأن أطبع قبلة تقدير على اليد المغضنة الممدودة إليّ والتي راحت ترتجف وكأنها ورقة من أوراق الشجر تعصف بها رياح الخريف.

الفهرس

مقدمة ٥
الفصل الأول ١٣
الفصل الثاني ٢١
الفصل الثالث ٣١
الفصل الرابع ٣٩
الفصل الخامس ٤٩
الفصل السادس ٥٧
الفصل السابع ٦٧
الفصل الثامن ٧٥
الفصل التاسع ٨٥
الفصل العاشر ٩٥
الفصل الحادي عشر ١٠٣
الفصل الثاني عشر ١١٣
الفصل الثالث عشر ١٢٣